باب التاريخ والجغرافيا:

1- فلسطين والنزاع الكبير: أرض ممزقة إلى قسمين، الصهيونية وطفولة الأفكار (1897-1918)

Palestine and the Great Feud: A Land Torn in Two, Zionism and the Infancy of Ideas (1897 – 1918)

بقلم : أ. د. لبيب أحمد بُصول

أستاذ دكتور في العلوم الإنسانية والاجتماعية /جامعة خليفة للعلوم والتكنولوجي/أبو ظبي

Dr. Labeeb Bsoul

Professor of Humanities and Social Sciences, HSS Department (Abu Dhabi Campus)

Khalifa University of Science, & Technology (KU)

E-mail: labeeb.bsoul@ku.ac.ae

تاريخ الإرسال: 7/20 /2022 تاريخ القبول: 8/16/ 2022 تاريخ النشر: 9/25/ 2022

Abstract

The difference of the Arab-Israeli conflict is actually in its sui generis nature. Throughout the history of the Israeli-Palestinian conflict, there has been some characteristics that distinguished it from other international conflicts, which I will detail later on. In fact, the argument is that the sui generis nature of the conflict precludes the possibility of establishing a permanent peace in the Middle East yet at the same time speaking about the never-ending peace process is still a choice has shaped the agenda of the conflict for years. It is very important to reveal these aspects

within the scope of the study of this conflict. Because the pressing question of this book and the way it is expressed includes the answer and the approach to this answer as well. Enumerating these distinctive features from the very beginning of this study of the Arab-Israeli conflict's early times, which is mostly disregarded, will make it rather meaningful. Moreover, the argument that the instrumentalized relationship between Zionism and Western colonialism, which is one of these distinctive features, affecting the current progress of the conflict can only make sense this way.

Keywords: Palestine, Zionism, European colonialism, Arab-Israeli conflict, Zionist settlement, Palestine Exploration Fund, Campbell-Bannerman

ملخص:

تكمن أهمية وحساسية قضية الصراع العربي الإسرائيلي في طبيعته الفريدة؛ فهو سبب أزمة هذه المنطقة وتوترها. وطوال تاريخ هذا الصراع، كانت هناك بعض الخصائص التي ميزته عن الصراعات الدولية الأخرى، والتي سأفصلها لاحقًا. الطبيعة الفريدة للصراع في الواقع تحول دون إمكانية إقامة سلام دائم في الشرق الأوسط، وعلى الرغم من اتفاقيات السلام بين الدول العربية والصهاينة لا يزال العالم العربي وإسرائيل على خلاف مع بعضهما البعض بشأن العديد من المسائل، والحديث في نفس الوقت عن عملية السلام التي لا تنتهي لا يزال خيارًا قد شكل أجندة الصراع لسنوات. ومن المهم للغاية الكشف عن هذه الجوانب في نطاق دراسة هذا الصراع. لأن السؤال الرئيس لهذه الدراسة وطريقة طرحه والإجابة عنه يتضمن الجواب والنهج لهذه الدراسة أيضًا. تعداد هذه السمات المميزة منذ البداية للأوقات المبكرة للصراع العربي الإسرائيلي، والتي يتم تجاهلها في الغالب، سيجعلها ذات مغزى إلى حد ما. علاوة على ذلك، فإن الحجة القائلة بأن العلاقة الوثيقة بين الصهيونية والاستعمار الغربي، هي واحدة من هذه السمات المميزة، والتي تؤثر على التقدم الحالي للصراع العربي الإسرائيلي ولا يمكن أن تكون منطقية إلا بهذه الطريقة.

الكلمات الدالة: فلسطين، الصهيونية، الاستعمار الأوروبي، الصراع العربي الإسرائيلي، الاستيطان الصهيوني، صندوق استكشاف فلسطين، كامبل بانرمان.

مقدمة:

تكمن أهمية وحساسية قضية الصراع العربي الإسرائيلي في طبيعته الفريدة؛ فهو سبب أزمة هذه المنطقة وتوترها. وطوال تاريخ هذا الصراع، كانت هناك بعض الخصائص التي ميزته عن الصراعات الدولية الأخرى، والتي سأفصلها لاحقًا. الطبيعة الفريدة للصراع في الواقع تحول دون إمكانية إقامة سلام دائم في الشرق الأوسط، وعلى الرغم من اتفاقيات السلام بين الدول العربية والصهاينة لا يزال العالم العربي وإسرائيل على خلاف مع بعضهما البعض بشأن العديد من المسائل، والحديث في نفس الوقت عن عملية السلام التي لا تنتهي لا يزال خيارًا قد شكل أجندة الصراع لسنوات. ومن المهم للغاية الكشف عن هذه الجوانب في نطاق دراسة هذا الصراع، لأن السؤال الرئيس لهذه الدراسة وطريقة طرحه والإجابة عنه يتضمن الجواب والنهج لهذه الدراسة أيضًا. تعداد هذه السمات المميزة منذ البداية للأوقات المبكرة للصراع العربي الإسرائيلي، والتي يتم تجاهلها في الغالب، سيجعلها ذات مغزى إلى حد ما. علاوة على ذلك، فإن الحجة القائلة بأن العلاقة الوثيقة بين الصهيونية والاستعمار الغربي، هي واحدة من هذه السمات المميزة، والتي تؤثر على التقدم الحالي للصراع العربي الإسرائيلي ولا يمكن أن تكون منطقية إلا بهذه الطريقة.

تجدر الإشارة في البداية إلى أنه لأول مرة في التاريخ، أقام شعبان – فلسطينيون ويهود – دولة تشير إلى نفس الخريطة الجغرافية السياسية مع الادعاء من كل طرف بأن هذه المنطقة المتداخلة تتعلق بطرف واحد فقط من كل منهما. في الأزمات الدولية تحدث نفس القصة غالبًا عندما تدعي مجموعة من الناس، أو مجموعة عرقية أو دولة أن أرضها تحت سيطرة أو احتلال شخص آخر. مثل الصراع الأذربيجاني الأرميني في منطقة ناغورنو كاراباخ، والصراع التركي السوري في مقاطعة هاتاي، والصراع الروسي الياباني في جزر الكوريل، والعديد من الأمثلة تؤكد هذه المسألة. ومع ذلك، ولأول مرة في التاريخ، تداخلت الجغرافيا السياسية التي ادعى فيها الشعبان السيادة على كل الأرض. هذا هو الجانب الأول الذي يوضح الطبيعة الفريدة للصراع العربي الإسرائيلي، وبالتالي فإن السبب التاريخي الأول للمأزق هو نفس الجغرافيا السياسية –مع الأخذ في

الاعتبار أن الجغرافيا السياسية ذات السيادة هي أحد شروط إنشاء الحالة– ككل، وليست جزءًا أو امتدادًا، يُدعى أنه مرتبط بأحدهما، وفي نفس الوقت يحدد في الواقع طبيعة النزاع غير المنتهي بين الطرفين.

ثانيًا: البعد الديني للصراع العربي الإسرائيلي يؤثر على الطابع غير القابل للحل للصراع بشكل لا يتشابه مع أي أزمة وأي صراع دولي آخر. تاريخ العالم طبعا شهد حروبا دينية وطائفية لا حصر لها، وهناك أزمات دولية كثيرة محاطة بزخارف دينية مبنية على هذا الماضي الذي لم يبرد رماده بعد. الصراع المستمر بين الدول الكاثوليكية في أوروبا وروسيا الأرثوذكسية، والصراع من أجل الهيمنة الإقليمية بين إيران الشيعية والدول العربية السنية، والصراعات بين العالم الغربي والعالم الإسلامي بشكل عام تدعم هذه الحجة. ومع ذلك، فإن الصراع العربي الإسرائيلي، بالإضافة إلى كونه محاطًا بدوافع دينية، كما في الصراعات المذكورة سابقًا، له طابع ديني بحت بسبب مكانة القدس، لأن القدس ذات أهمية مركزية بالنسبة لليهودية والمسيحية والإسلام، ووطناً للمؤمنين، وتعتبر القدس أقدس مدينة بالنسبة لليهود، وذات أهمية مركزية لها؛ لأنه وفقًا للتوراة بنى الملك داود القدس لتكون عاصمة لمملكة بنى إسرائيل، وبنى ابنه الملك سليمان الهيكل الأول فيها. وتعتبر القدس ذات أهمية للمسيحيين أيضًا بسبب كنيسة القيامة، التي تم بناؤها على الموقع التقليدي لصلب يسوع ودفنه، وفقًا للكتاب المقدس. كما أن للقدس أهمية مركزية بالنسبة للمسلمين لأنها كانت القبلة الأولى لهم وفقًا للقرآن، ومنها عرج النبي محمد– صلى الله عليه وسلم– من هذه المدينة إلى السماء. لذلك، فإن الخلاف حول مكانة القدس على وجه الخصوص، وروحانية هذه الأرض للأديان الثلاثة، يساهم في كل من الطبيعة الفريدة للمشكلة والوضع غير المنتهي للنزاع العربي الإسرائيلي.

أما الجانب الثالث، في الصراع العربي الإسرائيلي، فهو قضية اللاجئين، فبعد قيام دولة إسرائيل في (14 أيار / مايو 1948)، وقعت كارثة التهجير وتشريد الشعب الفلسطيني وتحول أكثريته إلى لاجئين، وقضية اللاجئين الفلسطينيين تساهم في الطابع الفريد لهذا الصراع وطبيعته غير القابلة للحل. لذلك، عام (2018)، كان يعيش (12.5) مليون فلسطيني خارج وطنهم كلاجئين (والرقم أعلى مما هو مذكور هنا؛ لأن معظم الفلسطينيين غير مسجلين، أو ليس لديهم أوراق).[1] اللاجئون الفلسطينيون هؤلاء

(1) آري كنودسن (2015). اللاجئون الفلسطينيون في المشرق العربي – الهوية والفضاء والمكان بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

الذين يعيشون في الأردن وغزة والضفة الغربية وسوريا ولبنان، وحدهم لن يجعلوا الصراع العربي الإسرائيلي فريداً من نوعه؛ لأن المأساة التي يعيشها اللاجئون في جميع الأزمات الدولية لقضايا الأرض واضحة. وهم يتسببون في أزمات سياسية في البلدان التي يعيشون فيها – كما حدث في أزمة الأردن عام (1970) – والاستيطان غير القانوني لليهود الأكثر تطرفاً في المناطق المعيشية للنازحين الفلسطينيين في المدن والقرى، مع تجاهل من قبل إسرائيل للعلاقات الدولية، والقانون الدولي، وقرارات الأمم المتحدة، يعزل قضية اللاجئين في الصراع العربي الإسرائيلي عن أي نمطية. النقاط السابقة الذكر في ما يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي وطبيعته الفريدة قد تم طرحها وتوضيحها مرارًا وتكرارًا من قبل الباحثين في هذا المجال. وتشمل الفترة التاريخية التي يتم التأكيد عليها بشكل كبير في هذه الدراسات، الفترة التي تلت قيام دولة إسرائيل – وهي الفترة التي شهدت التطورات المذكورة سابقًا وأثرت على الدول العربية وشعروا بآثارها بشكل كبير، كالحروب التي حدثت بعد قيام دولة إسرائيل، والتهديدات الأمنية الإقليمية الناشئة عن قيامها، والبحث عن حلول لهذه القضية العالمية المهمة. وعلى الرغم من وجود العديد من الدراسات القيمة حول هذه المشكلة والصراع، إلا أنها تتجاهل للأسف جذور المشكلة وما يتفرع عنها من مشكلات، لأن قيام دولة إسرائيل والصراع العربي الإسرائيلي الذي ظهر بعد ذلك ليس سبباً للمشكلة بل نتيجة لها. بعبارة أخرى، فإن إقامة دولة إسرائيل هي في العمق جزء من أسباب هذه المشكلات، وربط التطورات التي حدثت في فترات لاحقة بإقامة دولة إسرائيل هو مجرد نضرة سطحية وغير عميقة.

ما يجب التركيز عليه في هذا السياق هو الفصل بين الأسباب الجوهرية والفرعية لأي صراع، في حين أن المكونات الأساسية هي العوامل الرئيسة التي توجه القضية نفسها ومسارها، ويمكن النظر إلى المشكلات الثانوية على أنها فروع لهذه المشاكل الجوهرية التي تتنوع بمرور الوقت. لذلك أعتقد أننا يجب أن نركز على سبب أساسي للصراع يكون تاريخيا أعمق وأكثر رسوخًا. ويمكن ملاحظة ذلك من خلال العلاقة الارتباطية بين الصهيونية، التي تعبر عن الفلسفة التأسيسية ونموذج دولة إسرائيل، والاستعمار الغربي والإمبريالية الغربية. وسيكون الكلام عن الاستعمار الغربي في طليعة النطاق التاريخي لهذا البحث. لقد ناقشت الكثير من الدراسات هذا الموضوع، لكن كما أشرت سابقا ترتبط هذه الدراسات بالفترة التي تلت قيام دولة إسرائيل. على سبيل المثال، فقد أنقذ الدعم السياسي للدول الغربية إسرائيل من خلال الحروب العربية الإسرائيلية في

عامي (1967) و (1973) بينما كانت على وشك الانهيار والزوال. ومنذ ظهور الصهيونية كفكرة، أدعي أنها مرتبطة بالاستعمار الغربي، وأن هذا الارتباط استمر مع الإمبريالية الغربية بعد عملية إنهاء الاستعمار في العالم. لأنه فقط عندما نفهم القضية بهذه الطريقة، فإن دعم العالم الغربي لإسرائيل يمكن أن يكون منطقيّا دون أي انقطاع تاريخي.

لذلك أنا فقط أعطي الأولوية لإحدى السمات التي تساهم في نشأة الصراع العربي الإسرائيلي. بالطبع هذا ليس تعسفياً، ومن الضروري التأكيد على بعض النقاط من أجل إجراء دراسة حول هذا المحور. وهذه النقاط التي سأدرجها هي أيضًا جوهر العلاقة الارتباطية بين الصهيونية والاستعمار الغربي:

أولاً: عندما ننظر إلى مرحلة تشكيل الدول القومية التقليدية، يمكن للمرء أن يلاحظ بسهولة أنها تشكلت في إطار أصل ولغة وثقافة المجتمع البشري الذي يحده إقليم معين. ومع ذلك، وبسبب الصهيونية، بنى اليهود في جميع أنحاء العالم هذا الاتحاد خارج الإقليمية في بعد دولي. وتشير الصهيونية في جوهرها إلى وحدة الأمة التي تتجاوز حدودها الإقليمية، وقد اختارت نهج آخر ومختلف عابر للحدود لتحقيق نفسها، وبمرور الوقت جعلت الصهيونية أداة خاصة بها.

ثانيًا: لقد وجد الاستعمار الغربي أن الصهيونية سيكون لها أثر فاعل ويمكن استغلالها، بهدف منع وحدة العالم العربي وتحقيق أهداف الاستعمار. ومن الممكن أن نفهم وجود مثل هذه العلاقة بين الصهيونية والاستعمار الغربي من خلال النظر إلى وحدة الغرض من كلا النهجين، والدوائر الدولية التي تم دعم الصهيونية فيها منذ البداية. فالصهيونية لا تتوافق مع المسار الطبيعي للتنمية الوطنية، مثل الأصل واللغة والوحدة الثقافية لأمة مقيمة في الأراضي التي عاش فيها أسلافها، ولكنها تتوافق مع فكرة دولية تتجاوز الإقليمية. وبالمثل، فإن الاستعمار الغربي، الذي يهدف إلى تصميم إطار خارجي، يتبع نفس المسار مع الصهيونية في هذا الإطار. والمنطقة التي يميل إلى اختيارها كلا الطرفين هي العالم العربي، والذي سيتم تحريره في ذلك الوقت من هيمنة الإمبراطورية العثمانية. وبينما كان هدف الصهيونية في هذه المنطقة إقامة دولة إسرائيل، كان هدف الاستعمار الغربي هو منع وحدة العالم العربي في فترة ما بعد الاستقلال، وإدارة موارد الدول والسوق في العالم العربي بسهولة أكبر؛ ونتيجة لذلك، تم دعم الصهيونية وحتى

استغلالها من قبل الاستعمار الغربي.

ثالثًا: نقطة أخرى تظهر فيها العلاقة بين الصهيونية والاستعمار الغربي هي دعم الجماعات والدول المعادية لليهود للحركة الصهيونية، وتشجيع قيام دولة إسرائيل على الأراضي الفلسطينية. ومما لا شك فيه أن سبب هذا الدعم، على نطاق صغير هو الموقع التاريخي – الاستراتيجي للمنطقة المستهدفة من قبل الصهيونية، وعلى المستوى الكلي، خطر العالم العربي واستغلال ثرواته في نظر الاستعمار الغربي. في هذا السياق، كان الاستعمار الغربي يهدف إلى الحد من فاعلية القومية المصرية على الوحدة العربية، وقطع تواصل دول العالم العربي في أفريقيا مع الدول العربية في شرق البحر المتوسط، للمحافظة على البنية المجزأة والتخلف والتبعية للدول العربية. لذلك فإن الصهيونية ودولة إسرائيل هما رد فعل على «التهديد العربي» ضد المصالح العالمية الاستعمارية. ودولة إسرائيل على هذا النحو هي نتيجة عمل مبرمج وتنسيق مستمر بين القوى الاستعمارية والحركة الصهيونية.

رابعًا: تتجلى اليوم هذه العلاقة بين الصهيونية والاستعمار الغربي في البعد الدولي للصراع العربي الإسرائيلي. لأنه منذ بداية هذه العلاقة، لم يقتصر الخلاف على كونه بين إسرائيل والعالم العربي فقط، بل كان دائمًا موضوع صراع القوى الدولية.

خامسًا: تم الكشف عن هذه العلاقة المُستخدمة بين الصهيونية والاستعمار الغربي في إعلان المنظمة الصهيونية في مؤتمر باريس للسلام عام (1919)، الذي عقد بعد الحرب العالمية الأولى – أو الحرب الإمبريالية الأولى، حيث كان اجتماعاً للحلفاء المنتصرين في الحرب، وقرروا فيه تقسيم غنائم المنهزمين، وكيف يحددون أسس السلام القادم معهم. لذلك أنشأ (حاييم وايزمان)، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية لجنة؛ لتمثيل الصهاينة في مؤتمر باريس للسلام. وصلت هذه اللجنة إلى باريس في (8 كانون الثاني، 1919). وقد أُنشئت اللجنة لتمثيل الصهاينة من مختلف البلدان. صاغت هذه اللجنة مذكرة قرار للنظر فيها أثناء المؤتمر والمسماة «إعلان المنظمة الصهيونية في فلسطين»، والتي تحتوي على مطالب الصهاينة قبل عروضهم في مؤتمر باريس للسلام. ويحتوي هذا الإعلان على مطالب المنظمة الصهيونية العالمية بخصوص فلسطين.

تضمن بيان المنظمة الصهيونية في فلسطين الاعتراف بالحق التاريخي لليهود في فلسطين، وحقهم في إعادة بناء وطن قومي لهم في فلسطين، وإقامة حدود معينة

لفلسطين، ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، والاعتراف بوعد بلفور والعمل على تحقيقه، وتسهيل الاستعمار اليهودي لفلسطين، وإقامة مجلس تمثيلي ليهود فلسطين. وفي الإعلان الصهيوني بعد تحديد حدود دولة فلسطين طلب من بريطانيا، الدولة الاستعمارية القوية في تلك الفترة، تكليفها بحكم المنطقة. واختار الصهاينة بريطانيا لتكون القوة الحاكمة في فلسطين؛ على أساس علاقتها الوثيقة بالصهيونية، ولا شك أن بريطانيا كانت تحمي اليهود في العديد من الأحداث عبر التاريخ.

وطالب الصهاينة في الإعلان الأطراف المشاركة في مؤتمر باريس للسلام بالاعتراف بالحقوق التاريخية لليهود في فلسطين، وقبول الأرض الفلسطينية كوطن قومي لليهود. وبحسب الصهاينة، على الرغم من إجبار اليهود على ترك الأراضي الفلسطينية بالقوة والعنف على مدى عصور، فإن الأمل في العودة لم ينته أبدًا. إذا سمح المجلس الأعلى بذلك، يمكن أن تصبح فلسطين مركز الحضارة اليهودية. لكن أرض فلسطين لم تكن كافية لجميع يهود العالم، لكنها تكفي كخطوة أولى للسماح لليهود من أوروبا الشرقية وروسيا الذين كانوا يعيشون في ظروف سيئة، بالهجرة والانتقال إلى فلسطين. في جوهر الإعلان المقدم إلى أعضاء المجلس الأعلى، طلب الصهاينة المساعدة في إقامة وطن قومي في فلسطين. وكانت النقطة الأكثر أهمية أن الصهاينة صرحوا أن بريطانيا هي القوة الوحيدة التي يمكن أن تساعد في ذلك. وقد قدم الصهاينة عروضهم أمام المجلس الأعلى لمؤتمر باريس للسلام بعد نشر مطالبهم في بيان رسمي، وبهذه المناسبة كشفت الصهيونية عن اتجاهها القائم على دعم الاستعمار الغربي.

سادساً: استخدم نابليون الصهيونية كأداة لاستعمار فلسطين لأول مرة قبل الحرب العالمية الأولى بوقت طويل، فعندما شن نابليون هجومًا على فلسطين عام (1799)، ودعا يهود العالم وشجعهم على التجمع تحت رايته، وطالب على حد قوله بالانضمام إلى صفوف جيشه «لإحياء مجد إسرائيل الضائع في القدس»، ووصفهم بأنهم الورثة الشرعيون لفلسطين. وبالمثل هناك أيضا انسجام تام بين ظهور الحركة الصهيونية والمصالح الاستعمارية البريطانية في الشرق الأدنى. وهناك عاملان مهمان كان لهما دور كبير في ولادة الصهيونية، أولاً: من خلال الاعتراف بفلسطين كمنطقة مهمة وأنه يجب السيطرة عليها من أجل الفصل بين الشرق والغرب ولمنع التقارب والوحدة العربية، لذلك بدأت بريطانيا جهودها الاستعمارية. والثاني هو إعلان فلسطين كوطن لليهود

في المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقد في بازل عام (1897)، ووضع هدف إقامة دولة يهودية في هذا البلد. وكانت مصالح الإمبريالية البريطانية والصهاينة متناغمة ومنسجمة، لدرجة أن رأس المال اليهودي اكتسب من ناحية بمساعدة الدول القوية، ومن ناحية أخرى اكتسبت بريطانيا قاعدة مهمة لاستغلال خيرات الشرق الأوسط، الذي كان لديه موارد غنية من المواد الخام. لذلك كان تقديم دعم الدول الاستعمارية الغربية القوية لقيام دولة إسرائيل إحدى السياسات العامة منذ ولادتها.

سابعاً: كان من الواضح أن تحقيق أهداف الصهاينة ستكون محاولة صعبة للغاية في ظل الظرف السياسي في القرنين التاسع عشر والعشرين. وفي نفس الوقت، كانت هناك مجموعات أخرى متعددة الجنسيات أرادت تحديد مصيرها مثل الصهاينة، وواصلت معظم هذه الدول نضالها بنجاح. ومع ذلك، فإن أهم ما يميز هذه الجماعات الانفصالية عن الصهاينة هو أن هذه الجماعات لها أوطانها الخاصة وأنهم لا يملكون نفس الهيكلية الصهيونية ليحصلوا على وطن جديد آخر. رغم كل هذه الصعوبات، تمكن مؤسس الصهيونية (تيودور هرتزل) في القرنين التاسع عشر والعشرين من رفع الصهيونية إلى مستوى الفاعل والمؤثر في النظام الدولي. قيم هرتزل السياسة الدولية بشكل جيد للغاية، وتمكن من تنظيم الحركة الصهيونية تقريبًا مثل الدولة، في بيئة كان يُعتقد أن الشروط المسبقة لهذا النظام فيها هي الدول، لدرجة أن الصهاينة لم يكتفوا بإضفاء مظهر الدولة على منظماتهم، بل اتجهوا أيضًا إلى تقليد سلوك المؤثرين الآخرين على المسرح العالمي، وفقًا للأحداث والتطورات. وبعد الحرب العالمية الأولى قسمت القوى العظمى الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق تابعة لنفوذها، وجعلت أقليات الإمبراطورية العثمانية تحرس مصالحها في هذه المناطق. وهكذا، أنشأت الدول الغربية نوعًا من المستعمرات، تتكون من أقليات في الإمبراطورية العثمانية، وكان الهدف حماية هذه المناطق من خلال استخدام المستعمرات كذريعة عندما انهارت الإمبراطورية العثمانية. وتصرف الصهاينة بنفس الطريقة والأسلوب أيضًا. وبحسب الصهاينة، إذا استمر الاستعمار اليهودي في فلسطين بنجاح، فسيطلبون أولاً من العثمانيين والقوى العظمى إضفاء الشرعية على وجودهم في هآرتس همفتحات – أرض الميعاد – بناءً على هذا التبرير.

في هذا السياق، تم تبني الحل الذي اقترحه الصهاينة في الدول الأوروبية، حيث كانت للمسألة اليهودية أهمية كبيرة. واعتقدت بعض الدول الغربية أن المسألة اليهودية لا يمكن

حلها بطريقة «الاستيعاب»، وأن الحل الوحيد هو «طرد» اليهود بالكامل من أراضيهم. وأن مشكلة اجتماعية مهمة سيتم حلها عن طريق نقل الأقليات اليهودية، التي اعتبروها مصادر الاضطرابات لديهم، إلى بلد آخر. فدعموا الجهود الصهيونية لهذه الغاية لإنشاء مستعمرات في فلسطين وشجعوا الهجرة اليهودية إليها. ويذكر التاريخ المزيد من الإثباتات والقصص التي ستتم مناقشتها لاحقًا.

لذلك تناولت في هذه الدراسة موقف الصهيونية؛ كونها أداة من أدوات الاستعمار الغربي منذ ولادتها، وهو السبب الأساسي للصراع العربي الإسرائيلي. وقد ذكرت سالفا العوامل التي أدت الى المشكلة الأساسية للصراع العربي الإسرائيلي. ومع ذلك، بصرف النظر عن الأسباب المذكورة في البداية، يجب أن نبرز لماذا يجب تقييم هذا السبب المحدد كمكون أساسي للمشكلة، لأنه إذا كان المكون الأساسي هو استغلال الصهيونية من قبل الاستعمار الغربي، فإن المكونات الأخرى للصراع العربي الإسرائيلي يجب أن تكون الفروع الثانوية لهذا المكون الأساسي.

إذا ألقينا نظرة على الفترة التي تلت قيام دولة إسرائيل، نرى أن عدم الاستقرار، وانعدام الأمن، والتطرف في المنطقة، قد أفادت الإمبريالية الغربية، وهي النسخة الحالية من الاستعمار الغربي، لدرجة أن العالم العربي أصبح منقسما، وأصبح استغلال الموارد البشرية والمادية للجغرافيا العربية أسهل. فمن ناحية تقوم إسرائيل بسرقة أراضيه واستغلال خيراته وتعذيب وإرهاب سكان فلسطين وإجبارهم على النزوح من أراضيهم، ومن جهة أخرى تشكل إيران تهديدا آخر للعالم العربي المقسم. وقد بدأت مناهضة إسرائيل في تشكيل الأسس الشرعية للحكومات الداخلية القمعية للزعماء العرب الاستبداديين في المنطقة، وأصبح ما يسمى معاداة إسرائيل وسيلة لإخفاء تعاون قادة دول الدولار البترولي والمستعمرين الغربيين. في خضم كل هذا الاضطراب، كان على أمة ضخمة أن تقاتل من أجل البقاء، وهو ما حدث في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والعديد من المناطق الجغرافية الأخرى.

أثناء فحص الفترة المبكرة للصراع العربي الإسرائيلي وضمن نطاق الدراسة، تتم مناقشة الأسباب الأساسية لهذا الصراع، ومع ذلك، لا يمكن تفسير هذا المكون هنا فقط بالأطماع الخبيثة للاستعمار الغربي. فالاستعمار يخلق دائمًا متعاونين محليين، وفي هذه الحالة، دولة إسرائيل الصهيونية، التي هي أداة الاستعمار الغربي –على الأقل تظهر

بوضوح نيتها في هذا الصدد–، والصهاينة الذين بيننا يتعاونون مع الاستعمار الغربي خفية، كقيامهم باحتضان الفظائع الفلسطينية، مثل هذه القضايا يجب مناقشتها وبحثها أيضا. بناءً على كل هذه النقاط، تتكون الدراسة من ستة فصول بما في ذلك الخاتمة. وقد ركزت في الجزء الأول من الدراسة على النقطة التي تؤسس العلاقة الوسيطة بين الصهيونية والاستعمار الغربي من خلال ما يسمى «بالتهديد العربي» للعالم الغربي. ومع ذلك، فقد هدفت إلى تجسيد نقاط الالتقاء للمبادئ الفلسفية التأسيسية للصهيونية والاستعمار الغربي، مع ظهور الحرب العالمية الأولى ونتائجها على القضية. وفي الجزء الختامي، لخصت بإيجاز وضع الصراع العربي الإسرائيلي بعد الحرب العالمية الأولى من أجل أن أربط هذا الكتاب بالكتاب الثاني، الذي هو في الواقع جزء من دراسة أكبر، أي استمرار بحث المشكلة.

الاستراتيجية الاستعمارية لمنع التهديد العربي

نادرا ما كانت العلاقات العربية مع أوروبا إيجابية، وقد استمرت الحروب والغزوات بين الشرق العربي وجيرانه الأوروبيين منذ الحروب الفارسية واليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد، والحروب الفارسية – الرومانية، والحروب الإسلامية – الرومانية – العربية، والحروب الصليبية. لقد اتخذوا شكلاً حديثًا في المشاريع الاستعمارية التي هيمنت على معظم العالم العربي، بدءًا من الاحتلال الفرنسي للجزائر عام (1830). وبالمثل كان للمبشرين الكاثوليك والبروتستانت طموحات استعمارية، فقد أثاروا ردود فعل سلبية بين العرب والمسلمين والمسيحيين الشرقيين. وفي المقابل لعبت المشاعر الإسلامية دورًا في الحد من الآثار السلبية الشديدة للممارسات التركية والفارسية بين العرب.[1]

عزز الصراع التاريخي الانقسامات القومية والثقافية، والتمايز بين مواطني ساحل البحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا والجنوب الشرقي العربي. وقد تقاسمت المخاوف المتبادلة في ذكريات كل طرف، ولعبت دورًا في تشكيل القرارات الاستعمارية الأوروبية تجاه العالم العربي والدول العربية. منذ بداية الاستعمار الأوروبي، كانت استراتيجية القوى الاستعمارية الأوروبية هي إعطاء الأولوية؛ وذلك للسيطرة على مسار الدول العربية، وإحكام قبضتها

(1) ساسي سالم حاج (2002). نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، بيروت: دار المدار الإسلامي ، ص. 79–77، أحمد عرفات قاضي (2010). الإسلام والغرب: إشكالية الصراع وضرورة الحوار القاهرة: مكتبة مدبولي،, ص. 125–123.

على العالم العربي، واستغلال جغرافيته وموارده وأسواقه وطاقته البشرية.[1]

كما أدت النزعة العرقية للمجتمعات الأوروبية إلى توتر العلاقات مع مجتمعاتهم اليهودية المعزولة في «الأحياء اليهودية». وتعود هذه الممارسات العنصرية جزئيًا إلى فشل المسيحية الغربية في تقديم مفهوم واضح للأقليات، وتحديد وضعها القانوني. فلم تنظر الكنيسة الكاثوليكية إلى اليهود إلا كشهود على عظمتها، وأداة وظيفية تشهد على انتصارات الكنيسة. ونظرت إليهم الكنيسة البروتستانتية في ضوء أرثوذوكسيتها، القائمة على الاعتقاد بأن عودة اليهود إلى فلسطين للتبشير هي شرط لعودة المسيح الثانية. وكان يُنظر إليهم بالتبعية على أنهم أداة لنقلهم إلى فلسطين وتحقيق رؤاهم التوراتية. وتعامل الملوك والنبلاء الإقطاعيون مع اليهود كأدوات يمكن استغلالهم لتحقيق الأهداف، وظيفتهم هي امتصاص فائض الأموال لدى الناس، من خلال التجارة والربا والأنشطة غير الإنتاجية الأخرى، ومن ثم توفيرها لأصحاب السلطة المدنية في شكل ضرائب وإتاوات.[2]

طوال العصور الوسطى تعرض اليهود في أوروبا لموجات متتالية من العداء، سواء أكان ذلك بدافع من عدم التسامح الديني، أم وفقًا لتوجيهات الطبقة الحاكمة. فكان العدوان عليهم الأشد قسوة خلال أسبوع الآلام. وكان البابا إنوسنت الثالث (1198–1216) واحدًا من أقوى باباوات العصور الوسطى وأكثرهم نفوذاً، حيث قرر ضرورة إجبار اليهود على ارتداء ملابس خاصة، واتهمه اليهود بغرس روح محاكم التفتيش بسببها.[3] وعندما بدأت المبادئ الإنسانية بالانتشار ومنح الجميع حقوقا متساوية، خاصة بعد الثورة الفرنسية عام (1789) وفتوحات نابليون، تم منح يهود أوروبا الغربية بعضا من الحرية، مما مكنهم من الحصول على قبول واسع في الجامعات، والانخراط في المهن المختلفة، مثل: الطب والقانون والصحافة والصيدلة والفنون. وشهدت فترة الحرية النسبية هذه زيادة نفوذهم في التجارة والمصارف. وخلال القرن التاسع عشر شهدت أوروبا تطورًا اقتصاديا، ونموًا سكانيا، ونزوحًا من الريف للمدن، وهجرة إلى الأمريكيتين وأستراليا. وازداد عدد مواطني أوروبا خلال القرن التاسع عشر من (187) مليونًا في عام (1800) إلى (401) مليون في

(1) محمد مصطفى كمال, فؤاد نهرا (2001). صنع القرار في الاتحاد الأوروبي والعلاقات العربية–الأوروبية بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, ص. 121–119

(2) عبد الوهاب المسيري (1977). الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ, القاهرة: دار الشروق, ص. 25–26.

(3) اسعد زروق (1991). الصهيونية والتلمود, بيروت: دار النشر للطباعة, ص. 44–43

عام (1900)؛ بزيادة قدرها (214٪). وارتفع عدد اليهود من (2.5) مليون عام (1800) إلى (10) ملايين عام (1900)؛ بزيادة قدرها (400٪). بينما كانت الحكومات الأوروبية تشجع الهجرة للتخفيف من آثار النمو السكاني، وخلال الهجرة تدفق اللاجئون اليهود من الشرق إلى الغرب. وأدى الشعور المتنامي للنخب المسيحية بضغوط المنافسة اليهودية إلى إعادة إشعال صرخة القرون الوسطى «اليهود يخرجون من هنا».[1]

وعززت الطموحات الاستعمارية تنامي معاداة السامية؛ وكان الهدف من هذا التعبير هو دعوات لنقل «الفائض» اليهودي إلى فلسطين.[2] وقد رحب الصهاينة بهذه الدعوة بين صناع القرار الأوروبيين، لأن ذلك من شأنه أن يخلص أوروبا من «الفائض» اليهودي. كما أنهم سيستغلون هذه المبادرة كأداة استعمارية لكبح تحرر العرب وتكاملهم وتقدمهم. وكان هذا في الماضي دعوة من نابليون لإنشاء مشروع استيطاني صهيوني استعماري. كما خطط بالمرستون لتقليل قوة الجذب والتقارب بين العرب، وإنشاء الملكة فيكتوريا لصندوق استكشاف فلسطين، ولجنة كامبل بانرمان للخبراء الاستعماريين التي تأسست عام (1907).[3]

أولاً: إنشاء نابليون لمشروع استيطاني صهيوني استعماري

كانت حملة نابليون ضد مصر نتيجة للأفكار التي قدمتها النخبة السياسية الفرنسية قبل أكثر من قرن من الزمان، فقد أرسل الفيلسوف الألماني جوتفريد فيلهلم ليبنيز (1646–1716) رسالة إلى لويس الرابع عشر يدعوه فيها لاحتلال مصر؛ لإغلاق طريق البريطانيين إلى الهند، والاستيلاء على تجارة الشرق، وتعزيز سيطرة فرنسا في الشرق.[4] وأعيد النظر في هذه الفكرة من قبل لويس الخامس عشر في أعقاب هزيمة فرنسا أمام بريطانيا في كندا، حيث اضطرت إلى توقيع معاهدة باريس عام (1763)،

(1) خالد القشطيني (1986). تكوين الصهيونية, بيروت: المؤسسة العربية للدراسات, ص. 93–100.

(2) عبد المنعم كاظم مطلب الشمري (2017). الدعاية الصهيونية وأساليبها في عملية تهجير اليهود في العالم عمان: دار أمجد، ص. 46–13.

(3) المصدر السابق, ص. 44–43.

(4) Mackie, John Milton; Gottschal Eduard Guhrauer (1945). Life of Godfrey William Von Leibnitz: On the Basis of the German Work of Dr. G. E. Guhrauer Boston: Gould, Kendall and Lincoln, pp. 58–61; London: Forgotten Books, 2019.

والتخلي عن مستعمراتها في أمريكا باستثناء لويزيانا. ودعا Duc de Choiseul (1719–1785) إلى غزو واحتلال مصر،[1] ليس فقط لإغلاق طريق بريطانيا إلى الهند، ولكن أيضًا للتعويض عن الخسارة الفرنسية. علاوة على ذلك، كان التجار الفرنسيون المقيمون في الشرق والذين يسافرون عبره، مثل قسطنطين فرانسوا تشاسيبوف فولني وكلود إتيان سافاري، يرفعون الخيال الفرنسي للمغامرة، ويقدمون معلومات قيمة عن واقع بلاد الشام، ولا سيما مصر. وفي (13 فبراير، 1798)، قدم تاليران تقريرًا إلى حكومة المديرين (وهو نظام سياسي فرنسي إداري اعتمد من قبل الجمهورية الفرنسية الأولى) يدعو إلى غزو مصر، وضمها لتصبح مقاطعة تابعة للجمهورية الفرنسية. وفي (5 مارس، 1798)، وافق المديرون على الحملة التي جرت في (19 مايو، 1798).[2]

وفقًا لبعض المصادر في عام (1798)، أرسل المليونير اليهودي الأيرلندي توماس كوريت رسالة إلى بول باراس، عضو الحكومة الفرنسية، نصح فيها فرنسا، التي تطمح لاستعمار الشرق العربي، ببناء جسر في فلسطين، وجعل فلسطين «الوطن القومي» لليهود. وتتألف الرسالة من نصيحة حول كيفية استفادة الفرنسيين بشكل كبير من الجالية اليهودية؛ لأنهم سيوفرون للفرنسيين عنصرًا موثوقًا به في الشرق في أثناء غزوهم.[3]

يتضمن خطاب الدعوة:

وهم (أي اليهود) يقدمون لك عنصرًا استعماريًا قويا راسخًا، قد يكون من الضروري أن تكون آسيا بمثابة إمبراطورية منحلة، الإمبراطورية العثمانية، تقدم لك أهم الضمانات للفوضى وإشعال الفتنة والأزمات، للقضاء على الأتراك مرة واحدة. ربما يخفي الأتراك

(1) بشارة خضر (2003). أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية الى اليوم, بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية, ص. 73–72.

(2) Amita Das Defending British India against Napoleon: The Foreign Policy of Governor–General Lord Monito, 1807–13, New York: The BoyDell Press, 2016, p. 25.

(3) Youssef Cassis1992)). Finance and Financiers in European History 1880–1960 Cambridge: Cambridge University Press, pp. 147–148. P. 161; عوني فرسخ (1985). مخطط التفتيت: التحدي الامبريالي الصهيوني المعاصر,القاهرة: دار المستقبل اسم يونس حريري (2007). قراءة في الاستراتيجية الإسرائيلية لتفتيت الوطن العربي, عمان: دار بشير, ص. 25, العربي, ص. 26; جاسم يونس حريري (2014). المخطط الاسرائيلي لتفتيت المنطقة العربية: دراسة حالة العراق 2013–1948, عمان: دار جنان, ص. 28–26; موسى كاظم التونيسي (2011). وثائق التدخل الأجنبي في الوطن العربي, دمشق: دار البعث, ص. 25–23.

عدم تسامحهم من خلال الاتصال بأشخاص من دول مختلفة، ويحملون راية النظريات والثقافات المتنوعة، وأعتقد أن الصين نفسها ستتأثر.[1]

يسلط النص الضوء على طبيعة الدعوة الصهيونية، حيث يتحدث المليونير الإيرلندي صراحة عن «عنصر استعماري» يهدف إلى مواجهة الإمبراطورية العثمانية. ويؤكد أن الطموح كان استعماريا وليس مقصورًا على فلسطين، بل كان يتألف من تطلعات للتوسع عبر الدول العربية والإسلامية. إنه يشير إلى الأسس الإرهابية للفكر والعمل الصهيوني. تحدث توماس كوريت عن نشر الفوضى، وإشعال الفتنة، والتحريض على الأزمات، والقضاء على الأتراك. مصطلح «الأتراك» في أدبيات ذلك الوقت شمل مواطني الدول العربية. ويؤكد النص على الآراء العنصرية المنبثقة عن عقدة «المركزية الأوروبية»، وقد نتج ذلك عن تواصلهم مع من اعتبروهم «حاملي لواء النظريات المتنوعة والثقافات المختلفة». وزعمت كوريت أيضًا أن نفوذهم المستقبلي سيمتد إلى الصين. ولم يورد النص أدنى إشارة إلى أساطير التوراة وعبارة «أرض الميعاد»، مما يعزز التأكيد على أن البعد الديني لم يكن الدافع الأهم أو الأبرز للحركة الصهيونية.

ذكر المؤرخ الصهيوني ناحوم سوكولوف في كتابه تاريخ الصهيونية (1600–1918) بيانًا منسوبًا إلى بعض الشخصيات اليهودية الفرنسية، بعد لقاء سري مع نابليون، موجه إلى يهود العالم، يفيد بأن عدد اليهود يبلغ ستة ملايين وهم منتشرون في جميع أنحاء العالم.[2] لديهم ثروات وممتلكات مالية هائلة، وقد حان الوقت لاستغلال كل ما لديهم لاستعادة بلدهم. حدد البيان النقطة المحورية لمثل هذا الجهد:

الدول التي نعتزم قبولها بالاتفاق مع فرنسا هي أراضي جانب البحر من مصر، مع الحفاظ على مساحة واسعة تمتد من عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر... هذا المركز المريح أكثر من أي مركز آخر في العالم يجعلنا من خلال ملاحة البحر الأحمر قادرين على الاستيلاء على ركن تجارة الهند والدول العربية وجنوب إفريقيا... وعلاوة على ذلك، فإن مجاورتنا حلب ودمشق تسهل تجارتنا، وموقع بلدنا على البحر الأبيض المتوسط يمكننا من إقامة روابط سهلة مع

(1) عودة بطرس عودة (1975). القضية الفلسطينية في الواقع العربي, طرابلس: دار الفكر العربي, ص. 22.
(2) عوني فرسخ (1985). مخطط التفتيت: التحدي الامبريالي الصهيوني المعاصر, ص. 26

فرنسا وإيطاليا وإسبانيا ودول أوروبية أخرى... وبما أن بلادنا في موقع وسيط في العالم، فإنها ستصبح مستودعًا لجميع المحاصيل التي تنتجها الأراضي الغنية.[1]

لم يرد ذكر الأساطير التوراتية والوعود التلمودية في رسالة كوريت في البيان المنسوب إلى شخصيات يهودية فرنسية، عقب اجتماعهم السري مع نابليون. هذا مؤشر آخر على أن الطموحات الاستعمارية كانت المحفز الحقيقي للحركة الصهيونية، على الرغم من استخدام الأساطير التوراتية والمشاعر الدينية لاستقطاب «الفائض» اليهودي واختيار المكان الذي يريده كملاذ. كما يشير إلى أن الطموح الاستعماري لم يقتصر على الدعوة إلى «استعادة فلسطين»، بل ركز على استعمار الأراضي البحرية المصرية. ويوفر البيان مزيدًا من الوضوح للبعد الاستعماري الاستغلالي كمحفز للحركة الصهيونية، فضلاً عن استعداد البرجوازية اليهودية للعمل كأداة من قبل نابليون في حملته الاستعمارية على مصر والشام.

ومع ذلك لم يكن الدافع الديني غائبًا تمامًا عندما دعا الأوروبيون إلى استعمار اليهود لفلسطين. إلى جانب توظيف الصهاينة لجذب اليهود الفقراء إلى فكرة استعمار فلسطين، قامت إنجلترا والدول التي كانت البروتستانتية سائدة لديهم خلال القرن الثامن عشر حيث شهدت أفكار «البيوريتانيين» بإحياء ودعم هذه الخطة الاستعمارية. ومنذ بداية القرن التاسع عشر شكلت بعثات الإرساليات والتجار والعلماء والمغامرين إلى بلاد الشام، ولا سيما فلسطين، مقدمة طبيعية لاستكشاف المنطقة، استعدادًا لاستعمارها. وفي عام (1804) تأسست في لندن جمعية فلسطين؛ لتشجيع اكتشافها ودراسة ظروفها. ولم تكن فرنسا خالية من الاهتمام بحماسة «العودة» التي اجتاحت البلاد البروتستانتية في ذلك الوقت. ففي عام (1800) كتب جيمس بيشينو كتابًا بعنوان قيامة اليهود: أزمة جميع الأمم،[2] دعا فيه إلى دعم عودة اليهود إلى فلسطين لأنها «تحقق نبوءات التوراة وتوفر

---

(1) Sokolow, Nahum (1919). History of Zionism, 1600–1918. London; New York: Longmans, Green and Co., vol. 2: 200–222; انظر ايضا الى صادق جلال العظم (1975). الصهيونية والصراع الطبقي, بيروت: دار العودة, ص. 59–58.

(2) James Bicheno (d. 1851). The Restoration of the Jews: The Crisis of All Nations London: Forgotten Books; علي محافظة (1980). العلاقات الفلسطينية الألمانية من إنشاء مطرانية القدس البروتوستانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية, 1945–1841, بيروت: المؤسسة العربية للدراسات, ص. 95.

حلاً للأزمات في البلاد المسيحية والاستيلاء على دول الإمبراطورية العثمانية «.[1] ومع ذلك لم يكن لبيشنو والجماعات «المطهرة» وزن سياسي أو تأثير اجتماعي في فرنسا الكاثوليكية.

وعندما توجه نابليون من مصر إلى فلسطين، تاركًا وراءه مقاومة متصاعدة، وتوقع نصرًا سهلًا في بلاد الشام بناءً على ما عرفه من تدهور أوضاع الدولة العثمانية، وخاصة قدراتها العسكرية، فإنه لم يتجه غربًا باتجاه ليبيا ولا جنوباً نحو السودان لتأمين موقعه في مصر، واعتبر أن احتمالات تحقيق النصر في الساحتين أكبر مما هي عليه في فلسطين؛ لقربها من مركز السلطة العثمانية، وأهميتها الاستراتيجية والدينية في نظر الباب العالي والقوى الأوروبية المتحالفة معه. ومع ذلك، لم يفهم نابليون، برفقة جنرالات ومؤرخين وعلماء، دور فلسطين التاريخي في الأمن القومي المصري، وأن الدفاع عن مصر غالبًا ما يتم على أرض فلسطين. لقد حقق نابليون نصراً سهلاً في رفح وغزة، وفي يافا أشرف على مذبحة مروعة على مدى يومين تم خلالها إعدام جميع أسرى الحامية العثمانية. وقدرت بعض المصادر عدد القتلى بنحو أربعة آلاف سجين. ولم تميز القوات الفرنسية بين الرجال والنساء والأطفال. ثم ذهب إلى عكا التي حاصرها لمدة (62) يومًا لكنه فشل في احتلالها في (5 مايو، 1799). وبعد أسبوع وافق المجلس العسكري على قرار رفع الحصار عن عكا، وإعادة القوات المنهكة إلى مصر.[2]

وبحسب محمد حسنين هيكل، فإن العديد من المصادر التاريخية تشير إلى أن نابليون أصدر في (4 إبريل، 1799) نداءً لليهود، تضمن: «أيها الورثة الشرعيون لفلسطين. إن الأمة الفرنسية التي لا توظف الرجال والأوطان كما فعل آخرون، تدعوكم إلى أرضكم بضمانها ودعمها ضد كل الدخلاء». في الدعوة تمت مخاطبة اليهود للعودة من نزوحهم

(1) يوسف عاصي الطويل (2014). الحملة الصليبية على العالم الإسلامي والعلاقات بمخططات اسرائيل الكبرى ونهاية العالم: الجذور, الممارسة وسبل المواجهة, بيروت: مكتبة حسن العصرية, ص. 117; Richard H. Popkin (1996). "David Levi, Anglo-Jewish Theologian", the Jewish Quarterly Review vol. 87, no. 1-2 (Jul. - Oct.), p. 83, of pp. 79-101; Mayir Vreté (1972). "The Restoration of the Jews in English Protestant Thought 1790-1840" Middle Eastern Studies vol. 8, No. 1 (Jan.), p. 23, of pp. 3-50.

(2) بشارة خضر (2003). أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية الى اليوم, ص. 76; صلاح أحمد هريدي (2010). أوروبا من مطلع العصور الحديثة حتى سقوط نابليون بونابرت, الإسكندرية: بستان المعرفة, ص. 136-133.

الجماعي، وأن فرنسا تساعدهم في تحقيق «إرث إسرائيل». وناشدهم المطالبة بشكل عاجل بحقوقهم ومكانتهم بين شعوب العالم، ووجودهم السياسي «كأمة بين الأمم.[1]

أول ما يجب ملاحظته بشأن البيان المنسوب إلى نابليون هو اختلاف المؤرخين حول صحته. بينما تم ذكره وتأكيده من خلال العديد من المصادر، فإن آخرين يشككون في صحة نشره. وانتقد الصهيوني فيليب جيديلا هذا الادعاء، وأكد أن الصحافة الإنجليزية اختلقته في عام (1925). وما يتفق تاريخيا هو أن فكرة استخدام اليهود في الخطط الاستعمارية لفرنسا وإنجلترا كانت موجودة منذ نهاية القرن الثامن عشر.[2]

ثانيًا: نداء نابليون كان سياسيا بحتا، ولا علاقة له بقناعات الصهاينة. وتتضمن الدعوة إشارة إلى نبوءات الكتاب المقدس «تراث إسرائيل»، مخاطبة اليهود كـ «شعب» و «أمة» وامتلاك حقوق سياسية. ولم يكن نابليون مؤمنًا بروتستانتيًا بنبوءات التوراة، ولم ينظر إلى اليهود على أنهم شعب أو أمة قائمة بذاتها. كانت آراؤه أقرب إلى العلمانية، التي كانت شائعة في أوروبا، ولا سيما في فرنسا وقت الثورة الفرنسية. وكان قوميا معتادًا على قوميته الفرنسية. تعامل مع الشخصيات اليهودية كمواطنين فرنسيين. بعد تتويجه إمبراطورًا، دعا يهود الدولة التي كان يسيطر عليها للاحتفاظ بالسنهدرين – أعلى سلطة قضائية يهودية في العهد القديم – لإصدار رأي استشاري تاريخي مفاده أن اليهود لا يعترفون بأنفسهم كأمة مستقلة. أرادهم أن يعلنوا عن أنفسهم على أنهم فرنسيون موالون لبلدهم دون تحفظ، وأن اليهودية هي دينهم.[3]

الملاحظة الثالثة والأخيرة: أن دعوة نابليون كانت تهدف إلى استغلال يهود الشام في سعيه لاستعمار المنطقة. وذلك لأن اليهود في بلاد الشام كانوا محدودين في العدد والفعالية، ومندمجين بشكل كبير في المجتمع العربي. وجاء في تقرير قدم لنابليون أن

(1) محمد حسنين هيكل (1996). المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: الاسطورة والامبريالية والدولة اليهودية, القاهرة : دار الشروق, ص. 32-31.

(2) Franz Kobler (1956). The Vision was There: A History of the British movement for the Restoration of the Jews to Palestine London: Lincolns-Prager, p. 44; أشرف علام (2008). مشروع قناة البحرين, القاهرة: مجموعة النيل العربية, ص. 215; زبير سلطان القدوري (2001). السلام في المشروع الصهيوني: مصر كنموذج, دمشق: اتحاد الكتاب العرب, ص. 13-; بشارة خضر (2003). أوروبا وفلسطين من الحروب الصليبية الى اليوم, ص. 82-80.

(3) اميل توما (1987). ستون عاما على الحركة القومية العربية الفلسطينية, بيروت: دار ابم رشد, ص. 5.

عدد يهود فلسطين بلغ (1800) نسمة. ومن بين هؤلاء (135) في القدس.[1] في كلتا الحالتين، يشكل الرقم حافزًا للمناشدة والدعوة الى غزو فلسطين واستعمارها.[2]

ثانيًا: خطة بالمرستون وأليرت للحد من قوة الانجذاب بين العرب

كان مصير الشرق العربي بيد أوروبا حيث قررت البدء بحرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ويذكر الأب جوزيف حجار أن تسع سنوات لإبراهيم باشا في بلاد الشام هي الأكثر خطورة في شبه الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر.[3] حيث كان لحملة الجيش المصري بقيادة إبراهيم باشا في بلاد الشام عام (1831) تداعيات عربية وأوروبية بعيدة المدى بلغت ذروتها في مؤتمر لندن عام (1840)، الذي وضع نهاية مأساوية للحملة. فلم يلق الوجود المصري في بلاد الشام استحسانًا من قبل بعض النخب العربية، ولا سيما الأمير بشير الشهابي، الحاكم شبه المستقل لجبل لبنان. لقد دفعت المجتمع العربي إلى الاقتراب من التحرر من نظام الملات العثماني. وجلب الحدث معه آمالا في التنمية الاقتصادية والاجتماعية. واستعادت مصر بعد أن طورت قدراتها بقيادة محمد علي باشا دورها التاريخي كقاعدة عربية، مما أدى إلى ردود فعل أوروبية متباينة.[4]

استفزت التطورات التي حدثت في بلاد الشام وانعكاساتها على الدولة العثمانية أوروبا، لا سيما إمكانية إحياء الإمبراطورية القديمة من قبل القيادة الشابة، في شخص محمد علي باشا أو محمد علي باشا وعائلته، الذين هددوا باستبدال الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت الإمبراطورية العثمانية تعاني من الشيخوخة. وقد أعرب المستشار النمساوي مترنيخ عن هذا القلق.[5] في مواجهة خطر واحد، لم تمنع التناقضات والاختلافات

(1) محمد حسنين هيكل (1996). المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل: الأسطورة والامبريالية والدولة اليهودية, ص. 33.

(2) خيرية قاسمسة (1973). نشأة الصهيونية في الشرق العربي والسودان, بيروت: دار الثقافة الجديدية, ص. 12; Lucien Wolf (1919). Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question London: Spottiswoode, Ballantyne, p. 104.

(3) جوزيف حجار (1976). أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية, ترجمة بطرس حلاق ومجيد نعمة, بيروت: المؤسسة العربية للدراسات, ص. 214–215.

(4) جورج انطونيوس (1987). يقظة العرب: تاريخ حركة العرب القومية, ترجمة ناصر الدين اسعد, احسان عباس, بيروت: دار العلم للملايين, ص. 85.

(5) جوزيف حجار (1976). اوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية, ص. 216.

الحادة بين القوى الاستعمارية الأوروبية من تشكيل معسكر واحد لرد موحد على التهديد العربي. وشكلت بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا الإجماع الأوروبي، حيث لعبت البرجوازية اليهودية المتنامية دورًا رئيسًا، وخاصة روتشيلد الذي شجع لويس فيليب على الانضمام إلى التحالف الذي تقوده إنجلترا. وتخلت فرنسا على مضض عن حليفها محمد علي باشا، الذي استخدم التنافس الاستعماري مع بريطانيا لتشكيل جيش نظامي، وأقام العديد من الصناعات وأسس البنية التحتية في البلاد.[1]

بهزيمة جيش إبراهيم باشا، وتقييد نفوذ محمد علي باشا وعائلته في مصر، وإجباره على تقليص عدد الجيش، وتفكيك ترسانته العسكرية، وفتح أبواب مصر لجميع الدول الأوروبية المتحدة، أضعفت القيادة البريطانية العثمانيين، وألغت إمكانية ظهور دولة عربية حديثة.[2] وأدى ذلك إلى زيادة تأثير المبعوثين الدبلوماسيين والمبشرين وتدخلاتهم في الشؤون العربية والتشكيلات الاجتماعية. فأدى هذا التدخل إلى تأخير التنمية المجتمعية، وساهم في انهيار نظام ميليت، وهو النظام الذي ينظم غير المسلمين الذين يعيشون في دولة إسلامية مع الحماية القانونية (أهل الذمة). وقد تم تدوين هذا النظام لأول مرة من قبل العباسيين، وانتهى رسميًا بإصدار التنمية / الإصلاح العثماني عام (1839)، وحل محله إصدار سلالة الحمايوني للسلطان عبد المجيد عام (1856).[3]

تحسبًا لتطور مصر القومي تبنى (بالمرستون) وزير الخارجية البريطاني آنذاك فكرة إعادة اليهود إلى فلسطين. كما أشار محمد حسنين هيكل، حيث تلقى (بالمرستون) وزير الخارجية البريطاني رسالة من المليونير اليهودي (روتشيلد) في مارس (1841)،[4] تدعم الفكرة، والتي تضمنت:

لا تكفي هزيمة محمد علي باشا وحصر نفوذه في مصر، لأن هناك قوة جذب بين العرب، وهم يدركون أن عودة مجدهم القديم مرهونة بإمكانية اتحادهم وتواصلهم. إذا

(1) عودة بطرس عودة (1975). القضية الفلسطينية في الواقع العربي, ص. 63; Kupchan, Charles A. (2010). How Enemies Become Friends: The Sources of Stable Peace, Princeton, N.J.: Princeton University Press, p. 192.

(2) عمر اسكندراني, سليم حسن (2014). تاريخ مصر من الفتح العثماني الى قبيل الوقت الحاضر, القاهرة: مؤسسة الهنداوي, ص. 180-176.

(3) عوني فرسخ (1994). الاقليات في التاريخ العربي منذ الجاهلية والى اليوم, لندن: رياض الريس للنشر, ص. 193-188.

(4) محمد حسنين هيكل (2002). حديث المبادرة, القاهرة: دار الشروق, ص. 70-69.

نظرنا إلى خريطة هذا الجزء من الأرض، سنجد أن فلسطين هي الجسر بين مصر وبقية الخطر في آسيا، وفلسطين كانت دائمًا بوابة الشرق. الحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر وفي هذه البوابة؛ لتكون بمثابة حاجز يمنع الخطر العربي ويهدده. يمكن أن تلعب الهجرة اليهودية إلى فلسطين هذا الدور. هذه ليست خدمة لليهود للعودة إلى أرض الموعد، وفقًا للعهد القديم، ولكن أيضًا للإمبراطورية البريطانية وخططها. ليس للإمبراطورية أن تكرر تجربة محمد علي باشا بإقامة دولة قوية في مصر أو بإقامة اتصال بين مصر وسائر العرب.[1]

من المهم أن نلاحظ أن روتشيلد اتبع دعوة كوريت للوجود اليهودي على الأراضي الفلسطينية لخدمة الاستعمار الأوروبي. ومع ذلك، كانت رسالة روتشيلد مختلفة عن رسالة سلفه، في أنها ذكرت عودة اليهود إلى أرض الميعاد، موضحة أن ذلك نبّئ به في العهد القديم. تشارك كوريت وروتشيلد قناعات رسائل كل منهما، مما يدل على الكفاءة في تحديد الفرص. وحصل كوريت على دعم الحكومة الفرنسية ذات التوجه العلماني، بينما وجه روتشيلد رسالته إلى وزير الخارجية البريطاني، حيث يسود المذهب البروتستانتي. لقد جادلوا بأن عودة اليهود إلى فلسطين هي مقدمة لا مفر منها لمجيء المسيح الثاني، على عكس فرنسا، حيث تسود الكاثوليكية، والاعتقاد بأن يسوع الناصري ابن مريم هو المسيح، كما دعا إليه وأعلنته نبوءات التوراة.

عكس روتشيلد المناخ الفكري السائد بين النخبة الإنجليزية، حيث صعد على أساس الثروة التي كان يهربها. وأولت الكنائس البروتستانتية في بريطانيا وبروسيا والولايات المتحدة الأمريكية اهتمامًا خاصًا للدعوة إلى الاستيطان اليهودي في فلسطين، بزعم تحقيق نبوءات التوراة. وكان هناك أكثر من جمعية لتحقيق هذه الغاية في إنجلترا، وأبرزها الكنيسة اليهودية المسيحية، حيث ظهر اللوردات أشلي وسالبوري وبيكونزفيلد وليندسي. وفي إسكتلندا كانت هناك جمعية كنيسة إسكتلندا، بينما اشتهر السفير فون بونسن من بين البروسيين، بكونه مبشرًا للبعثة اليهودية.[2] وربط نفسه بنشاط الحكومة البريطانية لإنجاح مشروعها الصهيوني. وقد تأسست الجمعية التبشيرية الأمريكية في الولايات المتحدة عام (1818) وكان لها جمعيات تبشيرية نشطة في الخارج في بلاد

(1) المصدر السابق, ص. 70.

(2) جوزيف حجار (1976). أوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية, ص. 240-229.

الشام وفلسطين والقدس.[1]

المبعوث الفرنسي إلى لبنان (دو بارتو) تحدث لرئيس الوزراء فرانسوا غيزو عن أنشطة المندوبين السياسيين ومبشري الكنيسة الإنجليز، وتركيزهم على الدور السياسي لليهود.[2] في أحد التقارير، تجلت أبعاد التأثيرات الطائفية في تنقل المبعوثين، وانتقدت ممارسات المقربين من اليهود، وتشاركهم في أوهام بني إسرائيل وإقامة مملكتهم المستقبلية. هؤلاء المبشرون يحتقرون كل إمكانية للتقارب مع الطوائف المسيحية ويصرون على التعلم مع اليهود فقط.[3] في هذا التقرير، هناك دليل، أولاً وقبل كل شيء، على أن هؤلاء المبعوثين يدركون أن ما يعملون ضده مخالف لمصالح العرب المسيحيين، وأن عداءهم للمسيحيين العرب لم يكن أقل إن لم يكن أكثر من عدائهم تجاه المسلمين العرب. ثانيًا: الطموح الاستعماري هو الدافع الأول والأهم للحركة الأوروبية لفرض الاستيطان الاستعماري اليهودي، وخاصة الإنجليز. ولم يكن البعد الديني سوى استخدام الرؤى والتفسيرات الدينية في خدمة السياسة الاستعمارية.

وكان على نائب القنصل النظر في حماية اليهود كواجب من واجبات الدولة. بالإضافة إلى ذلك كان عليه أن يزود وزارة الخارجية بمعلومات دقيقة عن حالة السكان اليهود في فلسطين. وقد عزز الدور البريطاني في تحقيق الإجماع الأوروبي ومعاهدة لندن عام (1840)، دور المبعوثين البريطانيين في البلاط العثماني، وكذلك في إدارات الولاة، وخاصة في بلاد الشام. أما بريطانيا فقد ناقضت دعمها للسلطان العثماني من خلال الاعتراف بالحق في حماية يهود الإمبراطورية العثمانية. وفي عام (1838) افتتحت بريطانيا قنصلية في القدس، وتم إنشاء أول أسقفية أنجليكانية بروتستانتية في المدينة المقدسة عام (1841).[4]

---

(1) مصطفى خالدي وعمرو فروخ (1970). التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي, بيروت: المكتبة العصرية, ص. 260.

(2) مسعود زهير (2009). الجهود التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية, 1861–1697, بيروت: دار الفارابي, ص. 316.

(3) وجيه كوثراني (1980). بلاد الشام, السكان, الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين, طرابلس: معهد الانتماء العربي, ص. 59.; كمال سليمان صليبي (1978). تاريخ لبنان الحديث, بيروت: دار النهار, ص. 114.

(4) جوزيف حجار (1976). اوروبا ومصير الشرق العربي: حرب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية, ص. 231.

نشط المبعوثون البريطانيون مع السلطات العثمانية وبين الجاليات اليهودية لإنجاح مشاريع الاستيطان اليهودية في الأراضي العربية. وكتب بالمرستون إلى السفير البريطاني في إسطنبول يطلب منه أن يحث الباب العالي العثماني على جمع اليهود المشتتين في أوروبا وإفريقيا وإيوائهم في فلسطين. لقد صاغها بطريقة تقنع العثمانيين أن ذلك سيسمح لهم بالاستفادة من الثروة والخبرة اليهودية.[1] تحت ضغط إنجليزي مدعوم بتدخل مصرفيين يهود، فأصدر السلطان عبد المجيد مرسوما في عام (1849) يسمح لليهود بشراء أرض في الأرض المقدسة. أنهى هذا المرسوم العهد العمري استجابة لطلب صفرونيوس بطريرك القدس من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب.[2] مباشرة بعد صدور مرسوم السلطان العثماني، سُمح لليهود بشراء الأراضي فيها.

قام العقيد تشارلز هنري تشرشل (جد ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية) بجولة في الدول العربية التقى خلالها بقادة يهود؛ لاطلاعهم على مرسوم السلطان العثماني وحثهم على الهجرة إلى فلسطين. وفي عام (1849) زار المليونير اليهودي الإنجليزي موسى مونتفيوري فلسطين، برفقة العقيد البريطاني جولز، الذي درس بدقة ظروف اليهود في فلسطين، وقدم مذكرة بذلك للحكومة البريطانية. وفي عام (1852) أسس القنصل الإنجليزي في القدس (جيمس فين) جمعية لتشجيع العمل الزراعي اليهودي في الأرض المقدسة لتمكين الاستيطان اليهودي. في نفس العام أنشأ القنصل الأمريكي (وارد كريسون) مستعمرة زراعية يهودية، معتبرا أنها البداية الأولى لفلسطين الجديدة، حيث ستقوم الأمة اليهودية وتزدهر.[3] وفي عام (1854) نجح مونتيفيوري في شراء أرض في القدس، وأقام عليها مستعمرة يهودية في موقع الحي المعروف اليوم باسم (مشكينوت شعنيم)، وكانت ثاني مستعمرة في الأراضي المقدسة.

(1) Barbara Wertheim Tuchman (1957). Bible and sword; England and Palestine from the bronze age to Balfour London: Alvin Redman, pp. 124-128; Franz Kobler (1956). The Vision was There: A History of the British movement for the Restoration of the Jews to Palestine London: Lincolns-Prager, p. 61.

(2) مجير الدين الحنبلي العليمي (ت. 928\1522). الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل, تحقيق عدنان يوسف عبد المجيد عمان: مكتبة دنديس, مجلد الرابع, ص. 255.; جرجي زيدان (1992). تاريخ اللغة العربية, بيروت: دار مكتبة الحياة, ص. 109.

(3) صادق جلال العظم (1975). الصهيونية والصراع الطبقي, ص. 56. ;Franz Kobler (1956). The Vision was there: A History of the British movement for the Restoration of the Jews to Palestine, p. 80.

وتزامن ذلك مع اندلاع حرب القرم التي تسببت في تدفق اليهود في وسط أوروبا إلى الغرب.[1]

كان موسى مونتفيوري (1854– 1784) بعد أن حقق ثروة من النشاط في سوق الأوراق المالية والبنوك الصناعية، من أبرز أثرياء اليهود الذين اهتموا بالاستيطان اليهودي في فلسطين، حيث كرس نفسه في عام (1824) للقضايا المتعلقة بأوضاع يهود أوروبا الشرقية والعالم الإسلامي. وقد ساعدته إمكاناته المالية ووضعه الاجتماعي، حيث كان ثاني يهودي يشغل منصب عمدة لندن، وأول يهودي ينال لقب السيد. وزار فلسطين مرات عدة، كما زار كلا من روسيا والمغرب ورومانيا للتعرف على أوضاع اليهود فيها، ومناقشة قضاياهم مع أعلى السلطات الحكومية في الدول الثلاث.[2]

وفقا لعبد الوهاب المصري، فقد أورد في موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسير جديد، حيث قال: تميز موسى مونتفيوري بالمهارة الدبلوماسية والوصول إلى الحكام المناسبين، والعديد من أنشطته كانت تتماشى مع السياسات الاستعمارية البريطانية، وكان دعمه لاستيطان اليهود في فلسطين، مثل معظم المهاجرين اليهود الأثرياء في الغرب، بهدف تحويل تدفق وهجرة اليهود إلى أوروبا الغربية؛ لأنها كانت تهدد وضعه الطبقي ووضعه الاجتماعي في إنجلترا. وكان همه الأساسي هو تحويل اليهود إلى قطاع اقتصادي منتج، من خلال ربطهم بالأراضي والمهن الزراعية، وإنشاء المستوطنات الزراعية، وإدخال العلوم الحديثة في المدارس اليهودية في أوروبا الشرقية.[3]

زار مونتفيوري محمد علي باشا عام (1838) وقدم له مشروعا استيطانيا في فلسطين، يمنح اليهود مكانة مميزة وقدرًا من الاستقلال الذاتي، والاعتماد على الذات في إقامة مشاريع زراعية وصناعية، مقابل إقامة البنوك في المنطقة لتقديم التسهيلات الائتمانية. إلا أن جهوده مع محمد علي تعثرت بسبب خروج الجيش المصري من بلاد الشام، فقام بتكثيف اتصالاته مع إسطنبول. وتذكر بعض المصادر أنه تلقى من السلطان العثماني عام (1855) مرسومًا يسمح له بشراء أرض في فلسطين؛ لغرض الاستيطان اليهودي.

---

(1) عودة بطرس عودة (1975). القضية الفلسطينية في الواقع العربي, ص. 46–45.

(2) بشير موسى نافع (1999). الامبريالية والصهيونية والقضية الفلسطينية, القاهرة: دار الشروق, ص. 56.

(3) عبد الوهاب المسيري (1999). الموسوعة اليهود واليهودية :نموذج تفسير جديد, القاهرة: دار الشروق, المجلد السادس ص. 176–175.

فأسس مستعمرة في القدس، وساعد في تمويل إنشاء المستوطنات الزراعية والصناعية في الجليل ويافا. كما اقترح على وزير الخارجية البريطاني (بالمرستون) عام (1859) إنشاء خط سكة حديد على طول نهر الفرات للوصول إلى الهند، يتفرع منه خط جانبي لصفد في فلسطين ويمتد إلى القدس. ويذكر في مذكراته أنه لا يوجد يهودي واحد في بريطانيا يريد الانتقال إلى فلسطين.[1]

وقد أنشئت أول مستوطنة قبل عقد المؤتمر الصهيوني الأول عام (1897) بنحو (45) عامًا. وهذا يؤكد حقيقة أن بدايات النشاط الاستيطاني الاستعماري على التراب العربي في فلسطين ترجع بالدرجة الأولى إلى أنشطة متعلقة بالاستراتيجية الاستعمارية البريطانية في البلاد العربية. كما أثرت القراءات البروتستانتية لنبوءات الكتاب المقدس، والحركة الصهيونية التي استضافها هرتزل على القوى الاستعمارية، ودعمت هذه الجهود بعد عقود عديدة من مؤتمر بازل.

كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أن إنشاء أول مستوطنة سبق أول هجرة كثيفة بنحو (30) عامًا. هذا لأن أول علياهة (الهجرة اليهودية العبرية إلى فلسطين) كانت من روسيا عام (1882). ولم تكن هناك هجرة يهودية كثيفة إلى فلسطين، بينما كانت الهجرة نشطة من أوروبا الشرقية إلى أوروبا الغربية، ومن أوروبا إلى أمريكا الشمالية والجنوبية. على عكس ما كان عليه الحال في جميع المشاريع الاستيطانية عبر التاريخ، فإن الجاليات اليهودية، الأوروبية وغير الأوروبية، لم تستجب للدعوات الاستعمارية التي حفزتها للهجرة إلى فلسطين.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن إحجام اليهود وعدم استجابتهم لدعوات الهجرة إلى فلسطين يشير إلى التأثير المحدود لدعوات العديد من الكتاب والحاخامات اليهود الذين روجوا للمشاعر الدينية والعاطفية للهجرة للأراضي المقدسة. وهذا يعزز الحجة القائلة بأن دوافع الهجرة والاستيطان بالنسبة لغالبية أولئك الذين استجابوا لدعوة اليهود كانت أكثر دنيوية – سياسية واقتصادية واجتماعية، وليست أسطورية ودينية.

ما هو شعور اليهودي العادي تجاه العودة إلى الأرض المقدسة؟ هل من الممكن أن يعود هؤلاء اليهود أصحاب الثروات والعقارات إلى فلسطين؟ هل يكتفون بالعيش في ظل

(1) مذكرات السير موسى والسيدة مونتفيوري ، في ماو 1839 ، بحسب خالد القشوني (1996). هيكل الصهيونية, بيروت: المؤسسه العربيه للدراسات والنشر,ص 194-193.

قوانين الدولة التي تحكم الأراضي المقدسة؟[1]

وهذا يدعم الموقف القائل بأن غالبية اليهود والنخب والجمهور كانوا أقرب إلى معارضة الهجرة إلى فلسطين، كما ورد في يوميات اللورد (ليندسي) في شكل تقرير قدم إلى بالميرستون بعد عودته من رحلته إلى مصر والشام. ويذكر أنه لا توجد قاعدة يهودية نشطة في الأرض المقدسة يمكن أن تتحمل عبء الهجرة اليهودية المؤثرة، وأن يهود تركيا والدول العربية ليسوا متحمسين للهجرة إلى فلسطين. ولن يتم إقناع يهود أوروبا الوسطى بالهجرة ويخشون أن يشكلوا «غيتو» في الشرق.[2]

يطمح شباب يهود أوروبا الغربية إلى الاندماج في المجتمعات التي عاشوا فيها، واعتبروا أن أرض صهيون الجديدة هي أمريكا وليس فلسطين. ولم يكن العديد من الحاخامات متحمسين للفكرة، حيث آمنوا بالمنظور التوراتي بأن العودة لا يمكن أن تبدأ إلا بظهور المسيح المخلص الذي سيقود شعبه. علاوة على ذلك من الناحية العملية لا يمكن لأي منظمة يهودية أن تقود عودة اليهود. كما نقله محمد حسنين هيكل:

الأفضل للمشروع أن ينجح من انتظار ظروف أفضل من الظروف الحالية التي أسس فيها اليهود تنظيمهم ومؤسساتهم المسؤولة عن عملية العودة.[3]

كان التقرير بمثابة صدمة لبالميرستون، الذي ورد أنه علق: «يبدو أنه من السهل اقتلاع الحي اليهودي، لكن ليس من السهل إخراج الغيتو من اليهود».[4]

منذ الأيام الأولى للصهيونية عارضها العديد من الحاخامات الفلسطينيين الذين كانوا مطلعين على طموحات ومقترحات المستوطنين الصهاينة، الذين جاء معظمهم من روسيا، واعتبروا ذلك بمثابة توترات مع مواطنيهم العرب الذين تعايشوا معهم طوال السنوات السابقة بسلام. وهدد الصهاينة أمن واستقرار المواطنين العرب. وقد وصفهم هؤلاء الحاخامات بـ «مدمرات المدينة». وقد كتبت أرملة الحاخام (عمرام بلاو) المعارض

(1) محمد حسنين هيكل (1996). المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل: الاسطورة والامبريالية والدولة اليهودية, ص. 49.

(2) قاسم حسن (1969). العرب والمشكلة اليهودية, بيروت: المؤسسةا التجارية ، ص 89-88 ؛ بديعة أمين (1974). المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية, بيروت: دار الطلائع ، ص. 150.

(3) محمد حسنين هيكل (1996). المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل: الاسطورة والامبريالية والدولة اليهودية, ص. 50-49.

(4) المصدر السابق, ص. 50.

الصهيوني البارز:

معاملة الصهاينة للعرب كانت مضللة بالنسبة ليهودي متدين كزوجي، المولود في القدس القديمة في بداية القرن العشرين. كما اعتاد زوجي أن يقول، تحول العرب إلى نوع من الأعداء المطلقين للشعب اليهودي، ولا شيء يمكن أن يكون أكثر كذبًا من هذا. عاش اليهود والعرب جنباً إلى جنب حتى قرر البريطانيون والصهاينة إخراجهم من طبيعة هذا التعايش، لأن من مصلحتهم [البريطانيين والصهاينة] زرع بذور الفتنة.[1]

ثالثًا: الملكة فيكتوريا تؤسس صندوق استكشاف فلسطين

اعتبر الاستعمار البريطاني المشروع بأنه يخدم مصالح الإمبراطورية في منطقة استراتيجية من العالم، وهي الوطن العربي، ولم يشجعه حقيقة أن اليهود لم يؤيدوا دعوات الهجرة، وأدت الاستجابة اليهودية الضعيفة لنداءات الإمبراطورية لإجراء دراسات شاملة للمشروع. ولهذه الغاية تم إنشاء صندوق استكشاف فلسطين في عام (1864) تحت رعاية الملكة فيكتوريا، وبقيادة مجموعة من الأكاديميين المتميزين، كوليام طومسون رئيس أساقفة يورك، ومن رجال الدين وأبرزهم عميد دير وستمنستر، وآرثر ستانلي، والسير جورج غروف.[2] ولم يكن وضع الصندوق تحت رعاية الملكة مسألة شرقية رسمية، بل تعبيرًا عن أهميته لدى صانعي القرار الإمبراطوريين البريطانيين، كما يتضح من المهام العديدة المنوطة به، ومستوى المسؤولين الذين أداروه.[3]

تم تحديد مهام الصندوق من خلال البحث الدقيق والمنهجي، في علم الآثار، والتضاريس والجيولوجيا، والجغرافيا الطبيعية، والتاريخ الطبيعي، والعادات، والتقاليد، لمواطني فلسطين، بينما ساهمت وزارة الحرب البريطانية في تكليف ضباط للقيام ببعض الأعمال والأنشطة، ولا سيما المهندسين، مثل: الكابتن (وكلود رينير كوندر)، والجنرال

(1) ياكوف م.رابكين (2006). معاداة اليهود للصهيونية ، ترجمة. داود قناب عايدة بيوت: مركز دراسات الوحدة العربية ، ص 8-7.

(2) خيرية قاسمية (1980). «نشاطات صندوق الاستكشاف الفلسطيني 1915-1865», الشؤون الفلسطينية ، بيروت ، تموز, رقم 104 ص. 101-71 Ilan Pappé (2004). A History of Modern Palestine: One Land, two Peoples New York: Cambridge University; Press, pp. 34-35.

(3) Moscrop, J. J. (1999) Measuring Jerusalem: The Palestine Exploration Fund and British Interests in the Holy Land, London Leicester University Press: London

(سري تشارلز وارين)، والمارشال (هوراشيو هربرت كيتشنر) واللورد (كيتشنر)، والمفوض البريطاني في مصر، وزعيم حملة إعادة تعافي السودان لاحقًا)،[1] وضابط المخابرات البريطانية المعروف توماس إدوارد لورانس.[2]

تم نشر العديد من الكتب من قبل الصندوق منها (المدينة والأرض)، كما تضمنت العديد من الدراسات، كدراسة مؤسسة (والتر بيانيت)، حول فكرة الترميم. وأحيت ذكريات ما قيل عن مجد فلسطين في عهد (هيرودس)، وفي أيام الملك داود، مذكّرا بأسماء المدن التي دمرها يشوع بن نون، وأمجاد أورشليم وعظمتها، وإحياء أسماء الأماكن الواردة في التوراة.[3] كما يتضح من أعمال المصيري، يظهر البعد التوراتي والبعد العسكري في إشارة إلى جوشوا ابن نون، ويشكلان سابقة للغزو الإمبريالي البريطاني الصهيوني.[4]

وقد وفرت الدراسات التي أجريت من خلال الصندوق للسياسيين والعسكريين البريطانيين ثروة من المعلومات، الجغرافية، والتاريخية، والسياسية، اللازمة لتنفيذ مخططهم الاستعماري في بلاد الشام وفلسطين. وقد أجرى هذه الدراسات علماء متخصصون في علم الآثار والتاريخ والجغرافيا والجيولوجيا والمناخ. وكانت الغالبية صهيونية التوجه، في إشارة إلى أهمية فلسطين وضرورة عودة اليهود وإقامة مستوطنة صهيونية استعمارية تحت الحماية البريطانية.

ومن أشهر الدراسات التي أجريت أعمال الكابتن (دارين) ذي التوجه الصهيوني، والذي نشر عدة مجلدات، من أهمها أحياء القدس، وملاحظات مسح فلسطين، وأرض الميعاد. ودعا في كتابه الأخير شركة الهند الشرقية، التي كانت قد تولت استعمار الهند سابقًا، إلى تطوير التنمية الزراعية والتجارية في فلسطين، وتدريب المستوطنين الصهاينة على إدارة شؤونهم. وامتدت عمليات الصندوق لتشمل الحفريات الأثرية في بعض مناطق سوريا ولبنان بقيادة النقيب (ويلسون). وإن كانت معظم عمليات خبراء الصندوق

(1) Urban, Mark (2005). Generals: Ten British Generals Who Changed the World London: Faber & Feber, p. 187.

(2) Kathleen Stewart Howe, Santa Barbara Museum of Art, St. Louis Art Museum (1997) Revealing the Holy Land: the photographic exploration of Palestine Berkeley: University of California Press, pp. 60-61.

(3) عبد الوهاب المسيري (1999). الموسوعة اليهود واليهودية :نموذج تفسير جديد, المجلد السادس ص. 156-157.

(4) المصدر السابق.

محصورة في فلسطين وخاصة مرج ابن عمير ونابلس والقدس والخليل. بالإضافة إلى هذه الدراسات، أصدر الصندوق خريطتين دقيقتين، الأولى لفلسطين الغربية، صدرت عام (1880)، والثانية لشرق فلسطين، وصدرت عام (1884). وتميزت الخرائط بذكر الأسماء التوراتية والحالية للمواقع، وشرح كامل للتضاريس. وكانت دقيقة للغاية لدرجة أنها استخدمتها الجيوش البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. وكان للصندوق في عام (1869) متحف في لندن ينشر مجلة علمية ربع سنوية، ولكنه أصبح سنويا منذ عام (1904)، بالإضافة إلى نشر أعمال (كوندور وكتشنر) والآخرين.[1]

وفقًا لباربرا ويرثيم توكمان، تولى اللورد شافتسبري رئاسة الصندوق في عام (1865)، وذكر في خطاب تعيينه:

دعونا لا نتأخر في إرسال أفضل العلماء للتنقيب في طول وعرض فلسطين، ومسح الأرض وتغطية كل ركن فيها إن أمكن، وتجفيفها وقياسها. أي ضرر تريد الاستعداد لعودة الملاك القدامى، كما أعتقد أنه لن يمر وقت طويل قبل هذا الحدث العظيم.[2]

وفي عام (1870) تأسست الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين، وأصدرت نداءً إلى الضمير الديني المسيحي أو اليهودي، لإثبات صحة الكتاب المقدس. ركز على شرق نهر الأردن. ومع ذلك تم إيقافه عام (1881). وفي نفس العام تم تأسيس جمعية علم الآثار التوراتية في إنجلترا. كما أسس الألمان عام (1877) الجمعية الألمانية للبحوث الفلسطينية. وأنشأ الفرنسيون المدرسة الفرنسية للدراسات الإنجيلية عام (1890). كما أسس الألمان جمعية ثانية هي الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية عام (1879). وأرسلت البحرية الأمريكية الضابط البحري (ويليام ف. لينش) على رأس مهمة لدراسة البحر الميت وشرق الأردن، وكان الدافع وراء مثل هذه الدراسات في كل هذه الجمعيات

(1) خيرية قاسمية (1980). «نشاطات صندوق الاستكشاف الفلسطيني 1915-1865», الشؤون الفلسطينية ، بيروت ، تموز, رقم 104 ص. 93; صادق جلال العظم (1975). الصهيونية والصراع الطبقي, ص. 55.

(2) Barbara Wertheim Tuchman (1957). Bible and sword; England and Palestine from the bronze age to Balfour, p. 159.

هو الصهيونية التوراتية.[1]

كما دعا العديد من المفكرين والشخصيات الأوروبية منذ منتصف القرن السابع عشر إلى عودة اليهود إلى فلسطين، واستيطانها، وإقامة دولة يهودية. ومن أبرز هؤلاء الإنجليز (جورج جولر، وجيمس فين، وغولن سميث، وتشارلز تشرشل، وإدوارد كارليت، ووليام هيشلر، وتشارلز وينجيت). ومن بين الفرنسيين (فيليب دي لانغاليري، وإرنست لاهاران، وجورج إليوت (ماري آن إيفانز). ومن أشهر المفكرين الأمريكيين (ويليام بلاكستون، رينولد نيبور، بولس آدم ميكيفيتش، فيليب ليفينسكي)، ومن روسيا دانيال مورودوفتشيف، ومن إيطاليا بينيديتو موسوليني، ومن جنوب إفريقيا إيان سميث. جميعهم من غير اليهود، بعضهم على أساس رؤى دينية وإيمان بنبوءات التوراة، وبعضهم على تراكمات الصراع التاريخي الأوروبي العربي الناجم عن أطماع استعمارية. ومن بينهم فلاسفة وكتاب وروائيون وضباط وصناعيون. إن تعدد جنسياتهم وأنشطتهم يؤكد أهمية فكرة استعمار فلسطين بين يهود أوروبا والثقافة الأوروبية قبل ظهور هرتزل وتبلور الحركة الصهيونية.[2]

أحيا نابليون الثالث الاهتمام الفرنسي بالمشروع الصهيوني أثناء مفاوضاته مع مصر لبناء قناة السويس؛ بهدف استعادة النفوذ الفرنسي في بلاد الشام، وخاصة مصر التي تراجعت نتيجة تخلي فرنسا عن نظام محمد علي باشا. وكان هنري دونان، المقرب من لويس نابليون، نشطًا في الدفاع عن المشروع الصهيوني، وأسس جمعية استعمار فلسطين، تحت رعاية الإمبراطور أوجيني. كما دعا إلى تنازل من السلطان العثماني تدريجياً عن فلسطين لإقامة مستعمرات على أرضها لليهود. في الوقت نفسه، نشر سكرتير نابليون الثالث (إرنست لاهران) كتابًا بعنوان: السؤال الشرقي الجديد وإحياء

(1) عبد الوهاب المسيري (1999). الموسوعة اليهود واليهودية :نموذج تفسير جديد, المجلد السادس ص. 157؛ إلياس شوفاني (2003). موجز في التاريخ السياسي لفلسطين منذ فجر التاريخ حتى عام 1949 ، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص. 282; محمد حمزة بن علي الكيتاني (2012). مفهوم الخلاص في اليهودية وأثره على الواقع اليهودي والحوار اليهودي الإسلامي ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ص 143-142.

(2) عبد الوهاب المسيري (1999). الموسوعة اليهود واليهودية: نموذج تفسير جديد, المجلد السادس ص. 172-157.

القومية اليهودية، دعا فيه اليهود الأثرياء إلى خيار شراء وطنهم من العثمانيين.[1]

كان جلادستون رئيس وزراء بريطانيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر غاضبًا من النفوذ الفرنسي المتزايد في مصر وأجزاء من بلاد الشام. وفي عام (1876) وبدعم مالي من البارون روتشيلد، اشترت الحكومة البريطانية برئاسة ديزالي، أسهم الخديوي إسماعيل في قناة السويس، مما منح بريطانيا موطئ قدم في مصر.[2] وطالب اللورد شافتسبري، في محاولة لترسيخ نفوذ بريطانيا في مصر، باستعمار فلسطين من قبل اليهود، قائلاً:

إنها ضربة كبيرة لإنجلترا إذا استولى أي من منافسيها على سوريا، فإن إمبراطوريتها التي تمتد من كندا في الغرب إلى كلكتا وأستراليا في الجنوب الشرقي، تنقسم إلى قسمين. يجب على إنجلترا حماية سوريا لنفسها. يجب على السياسة ألا تدعو إنجلترا إلى تطوير القومية اليهودية ومساعدتها.[3]

اغتنمت بريطانيا قضية الثورة العربية، ودعاها الخديوي توفيق لاحتلال مصر عام (1882). بعد دعم نفوذها الكامل في مصر، وتضاؤل حماس نخبها السياسية والثقافية لفكرة استعمار فلسطين مع يهود أوروبا. ويعد تراجع الفكرة مؤشرًا آخر على أن الطموح الاستعماري هو مفتاح ظهورها وتشجيعها ومتابعتها. ومع تحقيق الدافع الاستعماري لم يعد السياسيون والاستراتيجيون البريطانيون يعطون الأولوية لتطلعات النخب الإنجليزية. هذا لا يعني أن السياسيين البريطانيين فقدوا الاهتمام بالمشروع الصهيوني بقدر الأهمية النسبية في تأمين القوة الاستعمارية البريطانية. وبقيت جزءًا من خطتها الاستراتيجية

(1) صادق جلال العظم (1975). الصهيونية والصراع الطبقي ، ص. 69. ; انظر أيضا Sokolow, Nahum (1919). History of Zionism, 1600–1918, vol. 1, pp. 200–203, and vol. 2, pp. 259–265.

(2) Stein, Leonard (1961). The Balfour Declaration. London: Simon & Schuster, pp. 148–149; Franz Kobler (1956). The Vision was there: A History of the British movement for the Restoration of the Jews to Palestine, p. 94; David Vital (1980). The Origins of Zionism London: Oxford University Press, p. 94.

(3) Sokolow, Nahum (1919). History of Zionism, 1600–1918, vol. 1: p. 207.

بينما كانت تمارس سيطرتها على مصر ونفوذها المتزايد في البلاط العثماني.[1]

رابعاً: كامبل بانرمان مدير لجنة خبراء المستعمرات عام (1907)

أبرمت إنجلترا وفرنسا عام (1904) اتفاقية توزيع النفوذ الاستعماري في قارة إفريقيا، مما أدى إلى تراجع المنافسة التقليدية بينهما.[2] وقد انعكس هذا في موقف الدول الاستعمارية الأوروبية من دعوة هرتزل لإقامة دولة يهودية،[3] والمؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل بسويسرا عام (1897).[4] حيث لم يحظ باهتمام كبير من الحكومة البريطانية أو الفرنسية أو الألمانية. بسبب الاتفاق في ما بينهم والشعور بالطمأنينة، كما يتضح من وزير الاستعمار البريطاني (جوزيف تشامبرلين) الذي عرض على (هرتزل)، واقترح عليه في عام (1903) استعمار أوغندا بدلاً من فلسطين.[5] وقد وافق هرتزل على ذلك، وتوقف المشروع لعدة أسباب. وهكذا حاولت الحكومة البريطانية توظيف قدرات الصهاينة في استعمار القرن الإفريقي، بعد أن اعتقدت أن مصالحها الاستعمارية أصبحت الآن آمنة في الأرض العربية. قبول هرتزل للعرض البريطاني دليل آخر على أن الحركة الصهيونية كانت أداة استعمارية منذ نشأتها.[6]

شهدت ألمانيا نموًا اقتصاديا سريعًا بعد الوحدة الوطنية في عام (1870). وفي بداية القرن العشرين برزت ألمانيا كمنافس خطير لإنجلترا وفرنسا،[7] حيث طور برجوازيوها تطلعات استعمارية، بما يتوافق مع إمكاناتها المادية والبشرية، لأنها عانت من واقع

(1) حسن.(1967). العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، الإسكندرية: منشأة المعارف, ص. 77حمد عبد الرحمن; James Parkes (1964). A History of the Jewish People .London: Penguin; Rev.edition, p. 266

(2) انور جندي (1979). العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي بيروت: دار الكتاب اللبناني, ص. 90.

(3) رفيق شاكر النتشة (1984). الاستعمار وفلسطين: اسرائيل مشروع استعماري عمان: دار الجليل ،، ص. 99.

(4) يوسف العاصي الطويل (2014). البعد الديني لعلاقة أمريكا باليهود واسرائيل على القضية الفلسطينية للفترة (2009-1948)، بيروت: مكتبة حسن العصرية ، ص. 141-140.

(5) عبد الوهاب المسيري (1990). دراسات .في بعض المفاهيم الصهيونية والممارسات: الاستعمار الصهيوني وتطبيع الشخصية اليهودية مؤسسة الأبحاث ، ص. 43.

(6) إسماعيل أحمد ياغي (2018). الإرهاب والعنف في الفكر الصهيوني، الرياض: العبيكان للنشر، ص. 42-41.

(7) عبد الرؤوف سنو (2007). ألمانيا والإسلام في القرنين التاسع عشروالعشرين بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع، ص. 42-40.

التشرذم وصراعات النخب الحاكمة، وحصلت ألمانيا على امتياز التنقيب عن النفط والمعادن في فلسطين، الأمر الذي أغضب شركات النفط البريطانية العاملة في بلاد الشام. سياسة الغزو الاستعماري الألمانية وصلت إلى ذروتها بزيارة القيصر (فيلهلم) إلى إسطنبول ثم القدس عام (1898).[1]

وفي عام (1907) نجح الحزب الليبرالي بقيادة (كامبل بانرمان) في الانتخابات البريطانية وأصبح رئيسًا للوزراء. وأعطى الليبراليون الأولوية للقضايا الداخلية، مما أثار مشاعر المستعمرين، بمن فيهم أعضاء من المحافظين وأنصارهم.[2] وتحت الضغط اتفق المحافظون مع (بانرمان) على بدء الشؤون الداخلية مقابل ترك قسم السياسة الخارجية للمسؤولين المحافظين.[3] وبموجب الاتفاقية الودية، وافق بانرمان على تشكيل لجنة من خبراء الدولة للمصالح المتوافقة مع الاستعمار. وتم تشكيل لجنة خبراء من إنجلترا وفرنسا وبلجيكا وفنلندا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا لدراسة المصالح الاستعمارية للدول المشاركة.[4]

وكان من بين أعضائها مؤرخون مشهورون، وعلماء اجتماع، وجغرافيون، واقتصاديون، وخبراء نفط، وزراعة، ومستعمرون من البلدان السبعة، بما في ذلك البروفيسور جيمس، مؤلف البحث التاريخي وزوال الإمبراطورية الرومانية، ولوي ميديلين، أستاذ جامعة السوربون، ومؤلف من صعود وسقوط إمبراطورية نابليون، وليستر، أستاذ جامعي في لندن، ويلنش، وسميث، وديترينج، وزرف، من بين مشاهير العلماء والأساتذة الآخرين. خاطبهم بانرمان قائلا:

تتشكل الإمبراطوريات وتتوسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تتحلل وتتبدد ببطء. التاريخ حافل بالتطورات، ولا يتغير مع كل نهضة وكل أمة. هناك إمبراطوريات من روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وآشور والفراعنة وغيرهم. هل لديك أسباب أو وسائل تمنع السقوط والانهيار، أو تؤخر مصير الاستعمار الأوروبي الذي وصل الآن إلى ذروته؟ أصبحت أوروبا قارة قديمة استنفدت مواردها وهي تتقدم في السن، بينما لا

(1) خالد القشطيني (1986). تكوين الصهيونية, ص. 185-184.

(2) يونس ابراهيم التميمي (2022). العربية البترائية (الديار الأردنية): كما وثقها المستشرق والمستكشف النمساوي أولويس موسيل (1921-1816) عمان: دار الخليج, ص. 16-15.

(3) محمود ، حامد (1966). الدعاية الصهيونية و سائلها واساليبها وطرق مكافحتها ، القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية ، ص. 148-147.

(4) أرشي براون (2017). أسطورة القائد القوي: القيادة السياسية في السياسة الحديثة، ترجمة نشوى ماهر كرم الله, الرياض: العبيكان للنشر ، ص 147-146.

يزال العالم الآخر في شبابه يبحث عن المزيد من العلم والتنظيم والازدهار، فهذه مهنتك يا سيدي، ويعتمد نجاحها على ازدهارنا وسيطرتنا.[1]

وقد أغفل رئيس الوزراء البريطاني في استعراضه للإمبراطوريات القديمة، الإمبراطورية العربية الإسلامية، التي كانت الأبرز على الساحة الدولية لما يقرب من تسعة قرون، وساهمت في صعود أوروبا الحديثة. وأعرب عن قلقه بشأن استمرار ازدهار أوروبا وسيطرتها على آسيا وأفريقيا، وهو ما يمثل انفراجًا عن العقدة المركزية الأوروبية. درس أعضاء اللجنة تاريخ صعود وسقوط الإمبراطوريات، بالإضافة إلى حالة الإمبراطوريات التي كانت موجودة في بداية القرن العشرين. استخرجوا منه خطة للمستقبل وأصدروا تقريرًا يعرف باسم تقرير كامبل بانرمان.

وخلص التقرير إلى أن الخطر يكمن في البحر الأبيض المتوسط، الرابط بين الغرب والشرق، الذي كان حوضه مهد الأديان والحضارات، وأن شواطئه الجنوبية والشرقية تشكل الخطر الأكبر، على طول الساحل الجنوبي من الرباط إلى غزة، وعلى الساحل الشرقي لغزة إلى مرسين وأضنة. على الجسر البري الضيق الذي يربط آسيا بإفريقيا تمر قناة السويس بشريان الحياة لأوروبا، وعلى جانبي البحر الأحمر، وعلى طول ساحل المحيط الهندي وبحر العرب إلى خليج البصرة، الطريق إلى الهند والإمبراطوريات الاستعمارية في الشرق. في هذه البقعة الواسعة الحساسة والمهمة، يعيش شعب واحد، في وحدة تاريخه ودينه، ووحدة لسانه وآماله، وجميع عناصر التجمع والتماسك والوحدة، وميوله الليبرالية، وثروته الطبيعية، كل أسباب القوة والتحرر والنهوض. كيف يمكن أن يتحقق الوضع في هذه المنطقة إذا كانت آمال وأهداف شعبها متحدة بالفعل، وإذا سارت كل هذه القوة في اتجاه واحد؟

ثم يجيب التقرير عن السؤال القائل بأن الإمبراطوريات الاستعمارية ستحل القضية حتماً، وستتراجع أحلام الاستعمار مع الخلود والانهيار، كما كان الحال بالنسبة للإمبراطوريتين الرومانية واليونانية. ويحذر التقرير من أن الخطر الذي يتهدد كيانات الإمبراطوريات الاستعمارية يكمن بالدرجة الأولى في المنطقة العربية. الخطر يكمن في تربية أهلها وتنميتها وتوحيد اتجاه سكانها، وفي التجمع حول دين واحد وهدف واحد. ويوصي بأن «تعمل جميع البلدان ذات الاهتمام المشترك على مواصلة الحفاظ على وضع هذه

(1) شفيق الرشيدات (1991). فلسطين: تاريخا وعبرة ومصيرا ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ، ص 48-44.

المنطقة المجزأة والمتأخرة؛ وإبقاء أهلها مفككين وفي جهل وإبقاء الخصومات حية».[1]

كما أوصى التقرير بمحاربة اتحاد جماهير الأمة العربية واتحاداتها الفكرية والروحية والتاريخية. إنه يدعو إلى الحاجة إلى وسائل عملية قوية لفصلهم عن بعضهم البعض قدر الإمكان. ولتحقيق ذلك، اختتم التقرير بالتوصية بالعمل على فصل الشق الإفريقي عن العالم العربي في آسيا، مع فصل الشق الآسيوي أيضًا. وتحقيقا لهذه الغاية، أكد مجددا على ضرورة إقامة حاجز بشري قوي على الجسر البري الذي يربط بين آسيا وأفريقيا وربطهما بالبحر الأبيض المتوسط. في هذه المنطقة، وبالقرب من قناة السويس يجب أن تكون قوة استعمارية صديقة وعدوًا لسكان المنطقة.

وبهذه الطريقة، استعاد المشروع الصهيوني الأولوية، ليس فقط بين صانعي القرار الاستعماري البريطاني، ولكن أيضًا مع نظرائهم في الدول الاستعمارية الأوروبية، التي شارك مندوبوها في لجنة كامبل- بانرمان. فسعت إلى زرع مجتمع معاد للشعب العربي، وصديق للدول الأوروبية الاستعمارية في ركن مهم من العالم العربي.

لأن التقرير استراتيجي، فقد ظل سرا، ولم يتم إصداره أو نشره، ومر ما يقرب من قرن قبل نشره. فقد أشار المحامي أنطوان سالم كنعان إلى التقرير في محاضرة بعنوان: فلسطين والقانون، ألقى بها عام (1949) في جامعتي فلورينو وباريس. وفي عام (1957) نشر اتحاد المحامين بالقاهرة المحاضرة باللغة العربية بنفس العنوان. ولأن التقرير لم يصدر من الدول التي شاركت في عضوية اللجنة التي صاغته، اختلفت آراء المؤرخين والباحثين العرب حول وجوده. لكن محمد حسنين هيكل جادل في كتابه القيم «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» بأنه حقيقي وأن جدية محتوياته حالت دون الإفراج عنه.

(1) المرجع السابق ، ص. 50-48 ; محمد حسنين هيكل (1996). المفاوضات السرية بين العرب واسرائيل: الاسطورة والامبريالية والدولة اليهودية, ص. 110.

1. ‘Abd el WahÉb al-MessÊrÊ (1977). Zionism, Nazism and the End of History: A new cultural vision (Al-ØahyËniyyah w-al-NÉziyyah wa-Ni-hÉyat al-TÉrÊkh), presented by MoÍamed ×assanÊn Heikal Cairo: Dar al-ShurËq.

2. ‘Abd al-WahÉb al-MisÊrÊ (1999). Encyclopedia of Jews, Judaism and Zionism: A New Model of Interpretation (MawsË‘ah al-YahËd w-al-YahËdiyya w-al-ØahyËniyya: NamËdhaj TafsÊr JadÊd) Cairo: Dar al-ShurËq.

3. As‘ad ZarËq (1991). Zionism and the Talmud (Al-TalmËd w-al-ØahnËni-yya) Beirut: Dar al-NÉshir lil-ÙibÉ‘ah.

4. KhÉlid al-QashÏÊnÊ (1986). The Formation of Zionisim (TakwÊn al-ØahnËniyya) Beirut: al-Mu’asassah al-‘Arabiyya lil-DirÉsÉt.

5. Mackie, John Milton; Gottschal Eduard Guhrauer (1945). Life of Godfrey William Von Leibnitz: On the Basis of the German Work of Dr. G. E. Guhrauer Boston: Gould, Kendall and Lincoln, London: Forgotten Books, 2019.

6. BishÉrah KhaÌir (2003). Europe and Palestine: from the Crusades to this day (UrËbÉ wa-FalasÏÊn: min al-ÍurËb al-ÎalÊbiyyah ’ilÉ al-Yawm Beirut: Markaz DirÉsÉt al-WiÍda al-‘Arabiyya.

7. Amita Das Defending British India against Napoleon: The Foreign Policy of Governor-General Lord Monito, 1807-13, New York: The BoyDell Press, 2016.

8. Youssef Cassis1992)). Finance and Financiers in European History 1880-1960 Cambridge: Cambridge University Press.

9. ‘AwnÊ Farsakh (1985). The Disintegration Scheme: The Contempo-rary Imperial-Zionist Challenge (MukhaÏaÏ al-TaftÊt: al-TaÍadÊ al-Im-biryÉlÊ-al-ØahyËnÊ al-Mu‘ÉÎir) Cairo: Dar al-Mustaqbal.

10. JÉsim YËnus ×arÊrÊ (2007). Reading in the Israeli strategy in the frag-mentation of the Arab world (QirÉ’ah fÊ al-IstrÉtÊjiyya al-IsrÉ’Êliyya fÊ TaftÊt al-WaÏan al-‘ArabÊ) Amman: Dar al-BashÊr.

11. JÉsim YËnus ×arÊrÊ (2014). Israeli plans for the fragmentation of the Arab region: a case study of Iraq 1948-2013 (al-MukhaÏaÏÉt al-Is-rÉ’Êliyya li-TaftÊt al-ManÏiqah al-‘ArabÊyyah: DirÉsat ÍÉlat al-IrÉq 1948-2013), Amman: Dar al-JinÉn.

12. MËsÉ KÉ im TËnisÊ (2011). Documents of foreign intervention in the Arab world (WathÉ’iq al-Tadakhul al-AjnabÊ fÊ al-WaÏan al-‘ArabÊ)

Damascus: Dar al-Ba‘th.

13. ‘Õdah BuÏrus ‘Õdah (1975). The Palestinian Cause in the Arab Reality (al-QaÌiyya al-FalasÏÊniyyah fÊ al-WÉqi‘ al-‘ArabÊ) Trippilo: Dar al-Fikir al-‘ArabÊ.

14. Sokolow, Nahum (1919). History of Zionism, 1600-1918. London; New York: Longmans.

15. James Bicheno (d. 1851). The Restoration of the Jews: The Crisis of All Nations London: Forgotten Books.

16. ‘AlÊ MuÍÉfa ah (1980). German-Palestinian relations from the establishment of the Protestant Archdiocese of Jerusalem to the end of World War II, 1841-1945 (al-‘IliqÉt al-FalsÏÊniyya al-AlmÉniyya min InshÉ’ MuÏrÉniyat al-Quds al-BrËtustÉniyya wa ÍatÉ nihÉyat al-×arb al-‘Ólamiyyah al-thÉniyyah, 1841-1845) Beirut: al-Mu’asassah al-‘Arabiyyah lil-DirÉsÉt.

17. YËsuf al-‘ÓÎÊ al-ÙawÊl (2014). Crusade on the Islamic world the world and its relationship to the plan of Greater Israel and the end of the world: Roots, Practice, ways of confrontation. (al-×imla al-ØalÊbiyya ‘alÉ al-‘Ólam al-IslÉmÊ w-al-‘Ólam wa-‘IlÉqatuhÉ bi-MukhaÏÏaÏ IsrÉ’Êl al-KubrÉ wa-NihÉyar al-‘Ólam: al-JudhËr, al-MumÉrasah, Subul al-MuwÉjahah) Beirut: Maktabat ×asan al-‘AÎriyya.

18. Richard H. Popkin (1996). “David Levi, Anglo-Jewish Theologian”, The Jewish Quarterly Review vol. 87, No. 1/2 (Jul. - Oct.), pp. 79-101.

19. Mayir Vreté (1972). “The Restoration of the Jews in English Protestant Thought 1790-1840” Middle Eastern Studies vol. 8, No. 1 (Jan.), pp. 3-50.

20. BishÉrah KhaÌir (2003). Europe and Palestine: from the Crusades to this day (UrËbÉ wa-FalasÏÊn: min al-ÍurËb al-ØalÊbiyyah ’ilÉ al-yawm), Beirut: Markiz Dirasat al-Wihdah al-‘Arabiyya.

21. ØalÉÍ AÍmad HarÊdÊ (2010). Europe: From the Early Modern Times to the fall of Napoleon Bonaparte 1814 (’UrobÉ: min maÏla‘ al-‘uÎËr al-ÍadÊthah ÍatÉ suqËÏ NabilyËn Bonobart) Alexandria: BustÉn al-Ma‘rifah.

22. MuÍammad ×asanÊn Haikal (1996). Secret Negotiations between Arabs and Israel: myth, empire, and the Jewish state (al-MufawÌÉt al-Siriyyah bayn al-‘Arab wa-Isra’Êl: al-UsÏËrah w-al-ImbarÉÏËriyya w-al Dawlah al-YahËdiyya, Cairo: Dar al-ShurËq.

23. Franz Kobler (1956). The Vision was There: A History of the British

movement for the Restoration of the Jews to Palestine London: Lincolns-Prager.

24. Ashraf 'AlÉm (2008). The Two Seas Canal Project (MashrË' QanÉt al-BaÍrÊn) Cairo: MajmË'at al-NÊl al-'Arabiyya,

25. Zubayr SulÏÉn QadËrÊ (2001). Peace in the Zionist Project: Egypt as a Model (al-SalÉm fÊ al-MashrË' al-ØahyËnÊ: MaÎr ka-NamËdhajan) Damascus: ItiÍÉd al-KutÉb al-'Arab.

26. Emile Touma1978)). Sixty years of Palestinian Arab Nationalism, (SitËn 'Ómman 'alÉ al-×arakah al-Qawmiyya al-'Arabiyyah al-FilisÏÊniyya) Beirut: Dar Ibn Rushd.

27. Kahyriyyah QÉsimiyyah (1973). (al-NashÉÏ al-ØahyËnÊ fÊ al-Sharq al-'ArabÊ wa-ØadÉhu, 1908-1918) Beirut: Dar al-ThaqÉfah al-JadÊdah.

28. Lucien Wolf (1919). Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question London: Spottiswoode, Ballantyne.

29. Joseph Hajjar (1976). Europe: The Fate of the Arab East: The War of Colonialism on Muhammad Ali and the Arab Revival (UrobÉ wa-MaÎÊr al-Sharq al-'ArabÊ: ×arb al-isti'mÉr 'alÉ MuÍammad 'AlÊ w-al-NahÌah al-'Arabiyya), tr. Butrus al-×allÉq, MÉjid Na'mah) Beirut: al-Mu'asassah al-'Arabiyya li-l-DirÉsÉt.

30. George AnÏËnÊs (1987). Arab Awakening: The History of the Arab Nationalist Movement (Ya at al-'Arab: TÉrÊkh ×arkat al-'Arab al-Qawmiyyah), tr. NÉÎir al-DÊn al-Assad, IÍsÉn 'AbbÉs Beirut: Dar al-'Ilim lil-MalÉyin.

31. Kupchan, Charles A. (2010). How Enemies Become Friends: The Sources of Stable Peace, Princeton, N.J.: Princeton University Press.

32. 'Umar al-IskandarÉnÊ, SalÊm ×asan (2014). The History of Egypt from the Ottoman conquest to the present time (TÉrikh MaÎr min al-FatÍ al-'UthmÉnÊ 'ilÉ qubayl al-waqt al-ÍÉÌir) Cairo: Mu'asassat HindÉwÊ.

33. MuÍammad ×asanÊn Haikal (2002). Initiative Talk, 1979-1997 (×adÊth al-MubÉdarah, 1979-1997) Cairo: Dar al-ShurËq.

34. MuÏÏafÉ al-KhÉlidÊ, 'Umr FarËkh (1970). Evangelization and colonization in the Arab countries: an exposition of the missionaries' efforts to subjugate the East to colonialism (al-TabshÊr w-al-Isti'mÉr fÊ al-BilÉd al-'Arabiyya: 'arÌ 'ilÉ Ikh É' al-Sharq lil-Isti'mÉr al-GharbÊ) Beirut: al-Maktabh al-'AÎriyya.

35. Mas‘Ëd ÚÉhir (2009). Historical Roots of the Lebanese Sectarian Question, 1697-1861 (al-JudhËr al-TÉrÊkhiyyah lil-Mas’alah al-ÙÉ’ifiyya-hal-LubnÉniyya, 1697-1861) Beirut: Dar al-FarÉbÊ.

36. WajÊh KawtharÉnÊ (1980). Levant: Population, Economy and French Politics in the Early Twentieth Century: A Reading in the Documents (BilÉd al-ShÉm: al-SukÉn, al-IqtiÎÉd, w-al-SiyÉsah al-Faransiyya fÊ MaÏla‘ al-Qirin al-‘AshrÊn) Trippilo: Ma‘had al-IntimÉ’ al-‘ArabÊ, p. 59; KamÉl SulaymÉn al-ØalÊbÊ (1978). (TÉrÊkh LubnÉn al-×adÊth) Beirut: Dar al-NahÉr.

37. ‘AlÊ MuÍÉfa ah (1980). German-Palestinian relations from the establishment of the Protestant Archdiocese of Jerusalem to the end of World War II, 1841-1945 (al-‘IliqÉt al-FalsÏÊniyya al-AlmÉniyya min InshÉ’ MuÏrÉniyat al-Quds al-BrËtustÉniyya wa ÍatÉ nihÉyat al-×arb al-‘Ólamiyyah al-thÉniyyah, 1841-1845) Beirut: al-Mu’asassah al-‘Arabiyya li-l-DirÉsÉt.

38. MuÍammad ‘Abd al-RuÍmÉn ×usain (1967). (al-‘Arab wa-l-YahËd fÊ al-mÉÌÊ wa-l-ÍÉ ir wa-l-mustaqbal: DirÉsah musyafyaÌah tashmal jawÉnib al-qaÌiyyah al-FalasÏÊniyya wa taÏawar al-‘ilÉqÉt bayn al-‘Arab wa-l-YahËd ‘alÉ marr al-‘uÎËr) Alxesadria: Mansha’at al-Ma‘Érif.

39. James Parkes (1964). A History of the Jewish People London: Penguin.

40. Barbara Wertheim Tuchman (1957). Bible and sword; England and Palestine from the bronze age to Balfour London: Alvin Redman.

41. Franz Kobler (1956). The Vision was There: A History of the British movement for the Restoration of the Jews to Palestine London: Lincolns-Prager.

42. ‘UlaymÊ, MujÊr al-DÊn Abu al-Yymun ‘Abd al-RaÍÉn ibn MuÍammad (d. 928/1522). Al-Ins al-JalÊl wa-TÉrÊkh al-Quds w-al-KhalÊl Amman: n.p., 1973.

43. ZaydÉn, JurjÊ (1992). ÙÉrÊkh ÓdÉb al-Lughah al-‘Arabiyyah Beirut: DÉr Maktabat al-×ayÉt.

44. BashÊr MËsÉ NÉfi‘ (1999). Imperialism, Zionism and the Palestinian cause (al-ImbiryÉliyya w-al-ØahyËniyya w-al-QaÌiyya al-FalasÊniyya) Cairo: Dar al-ShurËq.

45. KhÉlid al-QashÏÊnÊ (1996). The Structure of Zionism (TakwÊn al-al-ØahyËniyya) Beirut: al-Mu’asassat al-‘Arabiyya lil-DirÉsÉt wal-Nashir.

46. QÉsim ×asan (1969). (al-‘Arab wa-l-Mushkilah al-YahËdiyya) Beirut: al-Mu’asassah al-TijÉriyyah, pp. 88-89; BadÊ‘ah AmÊn (1974). al-Mushkilah al-YahËdiyya wa-l-×arakah al-ØahyËniyyah) Beirut: Dar al-ÙalÊ‘ah.

47. Yakov M. Rabkin (2006). Jewish anti-Zionism (al-MunÉhaÌah al-YahËdiyyah lil-ØahyËniyah, tr. Da‘d QanÉb ‘Ó’idah Beiut: Markaz DirÉsÉt al-WaÍdah al-‘Arabiyya.

48. Ilan Pappé (2004). A history of modern Palestine: one land, two peoples New York: Cambridge University Press.

49. Kahyriyyah QÉsimiyyah (1980). “Activities of the Palestine Exploration Fund 1865-1915” (NashÉÏÉt ØandËq IstikhshÉf FalasÏÊn 1865-1915), ‘Palestinian Affairs /Shu’Ën FalasÏÊniyyah Beirut, July 1980), no. 104 pp. 71-100.

50. Moscrop, J. J. (1999) Measuring Jerusalem: The Palestine Exploration Fund and British Interests in the Holy Land, London Leicester University Press: London.

51. Urban, Mark (2005). Generals: Ten British Generals Who Changed the World London: Faber & Feber.

52. Kathleen Stewart Howe, Santa Barbara Museum of Art, St. Louis Art Museum (1997) Revealing the Holy Land: the photographic exploration of Palestine Berkeley: University of California Press.

53. IlyÉs ShËfÉnÊ (2003). Abridgment in the political history of Palestine since the dawn of history until 1949 (al-MËjaz fÊ TÉrÊkh FalasÏÊn al-SiyÉsÊ mindh Fajr al- TÉrÊkh ÍatÉ sinat 1948) Beirut: Mu‘asassat al-DirÉsÉt al-FalasÏÊniyya.

54. MuÍammad ×amzah ibn ‘AlÊ al-KitÉnÊ (2012). The Concept of Salvation in Judaism and its impact on Jewish Reality and Jewish-Muslim Dialogue (MafhËm al-KhalÉÎ fÊ al-DiyÉnah al-YahËdoyyah wa-Atharuhu fÊ WÉqi‘ al-YahËdÊ wa-l-×iwÉr al-IslÉmi-al-YahËdÊ) Beirut: Dar al-Kutub al-‘Ilmiyya.

55. Stein, Leonard (1961). The Balfour Declaration. London: Simon & Schuster.

56. Franz Kobler (1956). The Vision was There: A History of the British movement for the Restoration of the Jews to Palestine, p. 94; David Vital (1980). The Origins of Zionism London: Oxford University Press.